شبيه الأنبياء... وحيد الرضا، تقيّ آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم

- دراسة دلالية في خصائص الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام -

الباحثة

رجاء محمد بيطار

الجامعة اللبنانية ـ لبنان

rajaabitar69@gmail.com

Similar to the Prophets... Waheed Al-Ridha, the Taqi family of Muhammad (may God bless him and his family and grant them peace) - (Semantic study in the characteristics of Imam Muhammad bin Ali Al-Jawad, peace be upon him)

Researcher

Rajaa Muhammad Bitar

Lebanese University - Lebanon

الملخص:-

إن هذا البحث يتمحور حول خصائص الإمام محمد بن علي الجواد العامة، التي يشترك فيها مع باقي الأئمة المعصومين عليهم السلام ، وصفاته الخاصة التي ينفرد بها عنهم، دون أن يكون في انفراده هذا تفضيلٌ له عليهم بل هي سماتٌ لا بدّ منها لتمييز كلّ إمامٍ عن باقي الأئمة، لحكمةٍ ربّانيّة وهدفٍ إلهيّ متّصلٍ بظروفه الزمانية والمكانية ودوره في إرشاد الأمة. ولخصوصية ظروف الإمام ودوره، كما سنبيّن في هذا البحث، فقد اختصّه الله عزّ وجلّ بجملة مميّزاتٍ حاولنا طرح بعضها في عنوان البحث، وسيكون لنا معها وقفاتٌ نشرح بها تفاصيلها ودلالاتها.

يتألف هذا البحث من مقدّمة ومبحثين وخاتمة، نقوم في المقدمة بتسويغ العنوان ثم بطرح موضوع البحث وبيان أهميته، ثم نقوم بتحديد المنهج العلمي المتبع في الدراسة وتسويغه، وهو المنهج التاريخي الدلالي، ثم يأتي طرح الإشكالية، التي تتلخّص بالسؤالين الآتيين:

- كيف يمكن الاستدلال من خصائص الإمام الجواد عليه السلام على معالم شخصيته الاستثنائية؟
- كيف أثّرت شخصية الإمام الجواد عليه السلام بخصائصها الفريدة على دوره في إرشاد الأمة؟

تتمّ مناقشة هاتين الإشكاليتين في المبحثين الموسومين: "الإمام الجواد وحيد الرضا وشبيه الأنبياء" و"الإمام الجواد- شباب الأئمة، مرشدًا وهاديًا وشهيدا". ونختم البحث بخاتمةٍ تلمّ خيوطه وتقدّم النتيجة المرتجاة.

الكلمات المفتاحية: الإمام الجواد عليه السلام، تأثير، إرشاد، خصائص.

Abstract:-

This research revolves around the general characteristics of Imam Al-Jawad, which he shares with the rest of the Imams, peace be upon them, and his special characteristics that are unique to him, not as a preference for him over them, but as a divine purpose related to his temporal and spatial circumstances and his role in guiding the nation. And due to the specificity of the Imam's circumstances and role, as we will show in this research, God Almighty singled him out with a number of characteristics that we tried to present some of them in the title of the research, and we will have pauses with them to explain their details and implications.

This research consists of an introduction, two chapters, and a conclusion. In the introduction, we justify the title, then present the topic of the research and indicate its importance. Then we define and justify the scientific method used in the study, which is the historical semantic method. Then comes the problem, which is summarized with the following two questions:

- How can one deduce from the characteristics of Imam al-Jawad, peace be upon him, the specificity of his exceptional personality?
- How did the personality of Imam Al-Jawad, with its unique characteristics, affect his guiding role for the nation?

These two issues are discussed in the two sections: "Imam Al-Jawad Waheed Al-Ridha, the Similar to the Prophets" and "Imam Al-Jawad - the Youth of the Imams, a Guide, and a Martyr."

We end the research with a conclusion that gathers its threads and presents the result.

Key words: Imam al-Jawad, influence, guidance, characteristics.

المقدمة:

إن الحديث عن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام هو حديثٌ متشعّب الأطراف، ينطلق من جذوره الشريفة- آبائه وأجداده الطاهرين، إلى فروعه وأغصانه- أولاده المنتجبين، فهو يتمحور حول حياته المباركة، قبل وبعد ولادته، وخلال سنوات عمره الشريف، وما جرى معه وبعده... إنه الحديث عن نورٍ من أنوار آل محمد، شعشع في فضاء الكون خمسًا وعشرين حولًا، ولم يأفل بغيابه، بل هو لا يزال يغذّي الفكر الإنسانيّ والمجتمع البشريّ بهداه وعطائه اللامحدود، الذي هو بعضٌ من هدى وعطاء آبائه الطاهرين.

إن هذا البحث الموسوم "شبيه الأنبياء، وحيد الرضا تقيّ آل محمد" يحاول أن يلقي الضوء على بعض خصائص الإمام الجواد عليه السلام، وأن يقرأ في ثنايا الأحداث صفات الإمام ومميّزاته التي تميّز بها عن سائر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وتأثير تلك الخصائص في دوره الإرشاديّ.

لقد علمنا أن النبيّ ﷺ قال: "إن الله تبارك وتعالى خلق عليًّا من نوري وخلقني من نوره وكلانا من نورٍ واحد"(١)، وقال أيضا: "أنا وعلي من نورٍ واحد"(٢)، كما أنه نُقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: "خلقنا واحد وعلمنا واحد وفضلنا واحد وكلنا واحد عند الله تعالى... أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد"(٣)... إن هذه الأحاديث، وغيرها من نوعها كثير، يمكن الاستدلال بها على أن دراسة معالم حياة أحد الأئمة المعصومين عليهم السلام، وهم هداة الأمة، ليست إلا دراسة بعضٍ من كلّ، وأن ما ينفرد به أحدهم من مميزات خاصة لا تعني الأفضلية له عليهم بل الخصوصية، فهم جميعًا أنوار الحقّ التي برأها الله عزّ وجلّ ليهتدي بها البشر إلى الصراط المستقيم، وهم سلسلةٌ متّصلةٌ من أخذ ببعضها أخذ بكلّها، كمن يلتقط عقد الدرّ النضيد من إحدى درره فإذا هو قد التقطه جميعا.

انطلاقًا مما سبق، فإن هذه الدراسة، في رصدها لمعالم شخصية الإمام الجواد عليه السلام الفريدة، هي إنما تحاول أن تلقي الضوء على فرادة وعظمة شخصيات الأئمة أجمعين، فهم ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٤)، وذلك من خلال تتبّع صفات الإمام الجواد عمومًا، مع التركيز على بعض الصفات التي حملها كنتيجةٍ لما خصّه الله تعالى به من ظروفٍ استثنائية،

ثم تنثني الدراسة إلى ما كان لهذه الصفات والخصائص من أثرٍ عظيم في دوره الإرشاديّ في حياة الأمة الإسلامية عمومًا والتشيع لأهل البيت عليهم السلام خصوصًا.

إن الحديث عن الإمام الجواد قد استقطب اهتمام الباحثين والمؤرخين، كما هو الحديث عن آبائه وأبنائه من أئمة أهل البيت الميامين الذين ملأوا الدنيا والآخرة وشغلوا ناسهما، ولكن خصوصية البحث في حياته تتطلّب مقاربةً تراعي خصوصية ظروفه الزمانية والمكانية، التي ربما تشارك فيها مع بعض الأئمة وربما لم يفعل، ولكنه على كلّ حال، وانطلاقًا من حقيقةٍ بيّنها عنوان هذا البحث "الإمام الجواد شبيه الأنبياء، وحيد الرضا، تقي آل محمد"، يستدعي الالتفات إلى هذه الخصوصية ودراستها ومحاولة البحث في أسبابها ونتائجها وانعكاسها على دوره الإرشاديّ كإمامٍ هادٍ للأمة، لا في زمانه فحسب، بل في كلّ زمانٍ ومكان، تمامًا كما هم آباؤه، وكممهّد لدور الأئمة اللاحقين من أبنائه، وعلى رأسهم الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف.

إن البحث في هذه الخصوصيات يستمدّ أهميته وخصوصيته من أهمية وخصوصية الإمام الجواد عليه السلام، إنسانًا وإماما، ومن ربط الصفات بأسبابها وبيان دورها الاستثنائي، في مقاربةٍ نرجو أن تكون ركيزةً لنظرةٍ شموليةٍ عميقةٍ لحياة الإمام الجواد، نؤدي له من خلالها بعض حقه علينا، نستمدّ من معرفتها معرفةً أكبر به وبآبائه وأبنائه الطاهرين.

يتّبع هذا البحث المنهج التاريخيّ التحليلي، الذي يستعرض الحقائق التاريخية ويجزّئها ثم يشرحها وينتقدها ليقوم في النهاية باستخراج النتائج الواضحة. وقد تمّ اختيار هذا المنهج لتلاؤمه مع موضوع الدراسة وهدفها، حيث يتمّ استعراض بعض ظروف حياة الإمام الجواد، قبل وبعد ولادته، وخلال حياته القصيرة أمدًا والعامرة بصنوف العظات والحكم، ودراسة كلّ ظرفٍ على حدة للوصول إلى استنتاج الخصائص الفريدة للإمام، ومن ثم دراسة تأثير هذه الخصائص في مهمته الإرشادية. يطرح البحث إشكاليةً محدّدةً تتلخّص بالسؤالين الآتيين:

- كيف يمكن الاستدلال من خصائص الإمام الجواد عليه السلام على معالم شخصيته الاستثنائية؟
- كيف أثّرت شخصية الإمام الجواد عليه السلام بخصائصها الفريدة على دوره في إرشاد الأمة؟

وتتمّ مناقشة هاتين الإشكاليتين في المبحثين الموسومين: "الإمام الجواد وحيد الرضا وشبيه الأنبياء" و"الإمام الجواد- شباب الأئمة، مرشداً وهادياً وشهيدا".

ويختتم البحث بخاتمةٍ تلمّ خيوطه وتقدّم النتيجة المرتجاة.

المبحث الأول

الإمام الجواد وحيد الرضا وشبيه الأنبياء

قال الله عزّ وجلّ في محكم كتابه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[٥]، وعن الإمام الصادق عليه السلام قوله في تأويل هذه الآية: "نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملًا إلا بمعرفتنا"[٦]، وقد ذكر الشيخ الكليني في هامش الكافي الشريف الصفحة ١٤٤ تفسير الحديث بقوله: "كما أن الاسم يدلّ على المسمى ويكون علامة له، كذلك هم عليهم السلام أدلّاء على الله يدلّون الناس عليه سبحانه، وهم علامة لمحاسن صفاته وأفعاله وآثاره."

يتّضح مما سبق أمران: أهمّيّة معرفة الأئمة عليهم السلام والتعرّف على صفاتهم، وأهمّيّة إدراك أبعاد هذه الصفات، للاستدلال بها على صفات الله عزّ وجلّ وأفعاله.

من هنا فإن صفات الأئمة لا تزيدنا معرفةً بهم فقط كبشرٍ وهداة، بل تزيدنا معرفةً بالله الخالق الذي جعلهم لنا قدوةً وأسوة، لتكتمل بوجودهم الذات الإنسانية، وتكتمل الصورة البشرية التي صوّرها الله فأحسن صُوَرَها، وذلك مصداقًا للآية الكريمة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٧].

ومن هنا أيضًا فإن التعرّف على صفات الإمام الجواد عليه السلام تحديدًا، وهو جوهر هذا البحث، يزيدنا معرفةً به وبآبائه، وبالإمامة والرسالة معًا، وبالله عزّ وجلّ الذي خلقهم مثالًا كاملًا يقتدي به المقتدون، ويسترشد بهداه المسترشدون، ولعل من الأنسب في دراستنا هذه التدرّج في التعرّف على صفات الإمام بما يتوافق مع التسلسل الزمنيّ لحياته، فتكون على النحو الآتي:

أ - الإمام الجواد "وحيد الرّضا":

روي عن الإمام الكاظم عليه السلام قوله ليزيد بن سليط أحد اصحابه، حين مرّا بموضعٍ في

طريق مكة: "يا يزيد فإذا مررت بهذا الموضع، ولقيته- أي الإمام الرضا عليه السلام- وستلقاه، فبشّره أنه سيولد له غلام أمين مأمون مبارك، وسيعلمك أنّك لقيتني فأخبره عند ذلك أنّ الجارية التي يكون منها هذا الغلام جارية من بيت مارية القبطية جارية رسول الله ﷺ، وإن قدرت أن تبلغها منّي السلام فافعل ذلك"(٨).

حين نستقرئ هذا الحديث ونخوض في مضامينه ودلالاته، نجد أنه من الإشارات الواضحة والبشارات الموثوقة على ولادة الإمام الجواد وعلى إمامته، وعلى فضل والدته أيضا... فأما ولادته وإمامته فشاهدها "سيولد له غلامٌ مأمونٌ مبارك"، وأما فضل والدته المكرّمة فيظهر من خلال الإفصاح عن هويّتها ونسبها، ومن ثمّ إبلاغها السلام من الإمام! والشاهد قوله "جارية من بيت مارية القبطية" و"إن قدرت أن تبلغها مني السلام فافعل ذلك"...

لقد سبق للنبي ﷺ وللأئمة من أهل البيت عليهم السلام أن بلّغوا أصحابهم بولادة وإمامة من بعدهم من الأئمة، كما أبلغ الإمام زين العابدين عليه السلام مثلًا عن إمامة ولده الباقر وولادة حفيده الإمام الصادق عليهما السلام، وذلك حين سئل عن الإمام من بعده فقال: "محمد ابني يبقر العلم بقرا، قيل ومن بعده؟ قال: من بعد محمد جعفر، اسمه عند أهل السماء الصادق..."(٩)، كما أبلغ الإمام الصادق عن ولادة حفيده الإمام الرضا عليه السلام، وذلك في الخبر المنقول على لسان الإمام الكاظم عليه السلام: "سمعتُ أبي جعفرَ بن محمدٍ غير مرةٍ يقول لي: إن عالم آل محمدٍ لفي صلبك، وليتني أدركته، فإنه سميّ أمير المؤمنين علي عليه السلام"(١٠)... إن هذا الإخبار والإبلاغ مألوفٌ إذًا، وهو من مصاديق النصّ على الإمام من أسلافه، ولكنّ من الخصوصية في خبر الإمام الجواد الذي أوردناه سابقًا، والتي تميّزه عن سائر الأخبار الناصّة على غيره من الأئمة عليهم السلام، هو الاهتمام بشأن والدته، وإبلاغها السلام من الإمام، وفي هذا ما فيه من التكريم لها والإجلال لشأنها رضوان الله عليها، ولعلّ فيه أيضًا مآرب أخرى أهمها:

- **إنّ أمّ الإمام الجواد هي أمّ ولد، أي جاريةٌ:**

وهي في ترتيبها تأتي رابع جاريةٍ ولدت إمامًا، بعد السيدة شاهزنان الفارسية أم الإمام السجّاد، والسيدة حميدة الأندلسية أم الإمام الكاظم، والسيدة نجمة المغربية أم الإمام الرضا، وتليها في الترتيب السيدة سمانة المغربية أم الإمام الهادي، والسيدة سليل أم الإمام

العسكري والسيدة نرجس الرومية أم الإمام المهدي عليه السلام جميعا، أي أن الجواري من أمهات المعصومين هنّ سبع، وهذا عددٌ لا يُستهان به، فهنّ أكثر من النصف، لأن المعصومين أربعة عشر معصومًا، أمهاتهم ستٌّ عربيّات، إذ يشترك الحسن والحسين عليهما السلام في أمٍّ واحدةٍ هي الزهراء سلام الله عليها، وسبعٌ أعجميّات، وقد كانت تلك الجواري الفاضلات من خيرة النساء، وجاء في الحديث عن كلٍّ منهنّ ما جاء من شهادات الأئمة عليهم السلام بفضلهنّ، كقول الإمام الباقر لحميدة الأندلسية لما زوّجها من الصادق عليهما السلام: "حميدة في الدنيا محمودةٌ في الآخرة"[١١] وقول الإمام الصادق عنها: "حميدة مصفّاةٌ من الأرجاس كسبيكة الذهب..."[١٢]، أما السيدة نجمة فقد شهدت لها السيدة حميدة عند ولدها الكاظم بقولها: "يا بُنَيّ، ما رأيتُ جاريةً قطُّ أفضلَ منها، ولست أشكّ أنّ الله تعالى سيظهر نسلها، وقد وهبتها لك"[١٣]، كما أن شراءها كان بأمرٍ من رسول الله الذي رأته حميدة في المنام يأمرها بأن تهبها لولدها الكاظم[١٤]، بينما قال الإمام الهادي بحقّ أمه السيدة سمانة: "أمّي عارفة بحقّي وهي من أهل الجنة، لا يقربها شيطان مارد، ولا ينالها كيد جبّار عنيد، وهي مكلوءة بعين الله التي لا تنام، ولا تختلف عن أمّهات الصدّيقين والصالحين"[١٥]، أما سليل فقد قال في حقّها الإمام الهادي "سليل سُلّت من كلّ آفةٍ وعاهة ونجاسة"[١٦]، كما أنها لُقّبت بـ"الجدة"، أي جدة الإمام المهدي عجل الله فرجه، حيث كانت لشدة فضلها وتقواها وورعها ملاذًا للشيعة بعد استشهاد الإمام العسكري، يعودون إليها في غيبة إمامهم... وقصة السيدة نرجس، مليكة بنت يشوعا بنت قيصر الروم، معروفة مشهورة[١٧]، واختيارها من قبل الإمام الهادي لولده العسكريّ لتكون أمًّا لصاحب الزمان لم يكن عبثًا، وفضلها في حياة الأئمة وبعد استشهاد زوجها الإمام العسكري معروفٌ أيضا، وكذلك دورها في زمان الغيبة الصغرى إلى جانب السيدة سليل أم الإمام العسكري... ونعود إلى السيدة سبيكة النوبية أم الإمام الجواد عليه السلام، فنجدها إحدى تلك الثلة المصطفاة من النساء اللواتي أنجبن الأئمة الطاهرين، وكان اختيارهن من قبل الأئمة أيضًا لحكمة إلهية، وكان فضلهن وورعهن وتقواهن أمرًا مشهودًا له على لسان خيرة الخلق، ولم يأتِ الثناء على السيدة سبيكة من الأئمة فقط، بل إنها ذُكرتْ من قبل النبي ﷺ في الحديث: "بأبي ابن خيرة الإماء النوبية، الطيبة الفم، المنتجبة الرحم"[١٨]، فتكون لها من الخصوصية في حديث النبي ما لم يكن لغيرها من أمهات الأئمة عليهم السلام.

- **تكريم والدة الإمام والاهتمام بنسب المرأة التي ستلده:**

ويعدّ ذلك بحدّ ذاته درسًا أخلاقيًا للأمة في تكريم المرأة عمومًا والجارية خصوصًا، فهي جارية، وذاك لا يحطّ من شأنها، في مجتمعٍ كثرت فيه الجواري والغلمان واستُضعفوا وغُلبوا على أمرهم، إلا أن لأئمة أهل البيت المواقف المشرّفة في الحدّ من ذلك التمييز الطبقيّ والعنصريّ، وقصص الإمام السجّاد مع عبيده وإمائه، على سبيل المثال، معروفة، وإعتاقه لهم، حتى ذُكر أنه "ما استخدم خادمًا فوق حول"[١٩]، أي لم يستخدم عبدًا أكثر من سنة، بل كان يعتقهم بمناسبةٍ وبغير مناسبة، بعدما يعلّمهم ويفقّههم في دينهم ويرسلهم في الآفاق لتعليم الناس، وهذا ما ساهم أيضًا في نشر مذهب آهل البيت عليهم السلام في أصقاع الأرض... وقصص الأئمة الطاهرين الذين لم يميّزوا يومًا بين حرٍّ وعبد كثيرةٌ لا تُحصى، فقد كانوا مثالًا من أمثلة العدالة الإنسانية... وكان ذلك من مظاهر التحرير لخلق الله، لا من العبودية والرق فحسب، بل من الأفكار والمفاهيم الخاطئة المدسوسة في الإسلام، حتى أن الأئمة عليهم السلام هم أول من سنّ سنة الزواج من الإماء، إذ كان العرب ينفرون من ذلك، وكان زواج الإمام الحسين من الأميرة شاهزنان بنت يزدجرد الفارسية واستيلادها الإمام السجاد من أهمّ المؤثرات التي حدت بالعرب إلى تغيير رأيهم، بعدما رأوا من فضائل الإمام السجاد وتفوّقه علمًا وأدبًا وورعًا وتقًى على جميع أهل زمانه...

- **اتّصال نسب أم الجواد مع نسب مارية القبطية:**

ومارية هذه هي أم إبراهيم ابن رسول الله فيه ما فيه من التكريم والاهتمام بالسيدة مارية رضوان الله عليها، إلى الحدّ الذي شاء الله عزّ وجلّ أن يكون لها ذِكْرٌ في نسب أوليائه، واتصالٌ مع أم أحد أصفيائه، كما أن ذِكر الإمام الكاظم لهذا الأمر يعدّ أيضًا تكريمًا لها واحتفاءً بأمرها، وربما كان لوحيدية الإمام الجواد في نسل والده، (أي كونه وحيده)، وهو ما سنعالجه لاحقًا، دورٌ في ذلك، كما كان لوحيدية إبراهيم ابن رسول الله في نسل النبي ﷺ...

- **إبلاغ أم الجواد السلام من الإمام الكاظم:**

وهو إبلاغٌ بعظم شأنها وعلو مقامها بين أمهات الأئمة عليهن السلام، فالإمام لا يرسل سلامًا لأي أحدٍ ما لم يكن جديرًا بذلك، ولعل إقراءه السلام لها قبل جيلين من الزمان

يعود إلى أهمية دورها الأمومي للإمام الجواد، فهي لا بد قد قامت على شأن تربيته وتوجيهه في غياب والده الإمام الرضا في منفاه بخراسان، حينما أرسل المأمون في طلبه وفرض عليه الإقامة فيها، وكان الجواد قد بقي في المدينة إذذاك، وكان لا يزال طفلًا لا يزيد عمره على الستة أعوام...

- **إن إخبار الإمام الكاظم عن أم الجواد، واهتمامه بشأنها إلى حد إبلاغها السلام:**

يمكن أن يكون أيضًا امتدادًا لإخبار النبي ﷺ عنها، حيث ورد في الحديث الشريف قوله: "بأبي ابن خيرة الإماء النوبية، الطيبة الفم المنتجبة الرحم"[٢٠]... إن هذا الإخبار والثناء على السيدة أم الجواد عليها السلام من قبل النبي الأعظم لهو من أعظم المنن بحقها وبحق ولدها المعظّم، وهو ما سنلاحظه في سيرته من خلال هذه الدراسة.

- **إخبار الإمام الرضا عليه السلام بفضلها:**

وهو امتدادٌ آخر لإخبار والده الإمام الكاظم، وذاك في حديثه بعد ذكر بعض صفات ولده الإمام الجواد وفضائله: "قُدّست أمٌ ولدته... طاهرة مطهّرة"[٢١]... إن شهادة الإمام الرضا بحقّ أم ولده الجواد هي من أعظم شهادات الأئمة، فهو قد أكّد على قدسيّتها وطهارتها الاستثنائية "طاهرة مطهّرة"، وليس ذلك بقليلٍ في حقّ تلك الأم التي تكفّلت ولدها الإمام في غياب والده فأحسنت كفالته، بل إن الإمام الرضا قد تركه في كنفها بالمدينة آمنًا مطمئنًا لحسن حفظها ورعايتها له.

لقد أجمع جماعةٌ من أبرز مؤرخي الشيعة على أن الإمام الجواد كان هو الولد الوحيد لأبيه الإمام الرضا، وذلك بالخبر الآتي: "مضى الرضا عليه السلام ولم يترك ولدًا نعلمه إلا ابنه الإمام بعده أبا جعفر محمد بن علي عليهما السلام"[٢٢]، ولئن كانت هناك آراء أخرى في هذا المجال، إلا أن المرجّح منها هو هذا الرأي، وذلك لعدة أسبابٍ أهمها:

- إن الأخبار القائلة بتعدّد أولاد الإمام الرضا غير محقّقة، ولم يتحقّق منها إلا خبر الإمام الجواد.
- إن جلّ الأخبار القائلة بتعدّد أولاد الرضا أتت من مصادر علماء السنة، كالذهبي والصفدي وابن حجر الهيثمي[٢٣]، وهي لا يمكن أن توضع في مقابل موثوقية

الأخبار الواردة في كتب علماء الشيعة الأعلام، الذين أوردناهم سابقا.

- إن خبر الإمام الجواد مؤيَّد برواية عن حنَّان بن سدير قال: "قلتُ لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أيكونُ إمامٌ ليس له عقب؟ فقال أبو الحسن الرضا عليه السلام: أما أنه لا يُولدُ لي إلا واحد، ولكنَّ الله منشئ منه ذريةً كثيرة"(٢٤).

من هنا فإن القول بأن الإمام الجواد عليه السلام هو "وحيد الرضا" هو قولٌ له اعتباره وأفضليته على سائر الأقوال، ولذا فإن هذه الصفة التي ميّزته عن سائر الأئمة عليهم السلام كان لها دورٌ في صياغة شخصيته الإرشادية لاحقًا، كما أن لله عزّ وجلّ حكمة في وحيديته دون ريب، فهو الذي قدّر ذلك وميّزه به. وإن نظرةً في تاريخ الأئمة عمومًا تنبئنا ببعض الأبعاد التي يمكن أن نستقرئ بها هذه الوحيدية:

- تمهيدٌ لوحيدية الإمام المهديّ عجل الله فرجه، حيث أن الإمام الجواد هو وحيد الرضا، كما أن الإمام المهدي هو وحيد العسكريّ، وقد ذُكر في الأخبار أن الإمام الرضا بلغ الأربعين من العمر دون أن يعقب، أي دون أن يكون له ولد، حتى شكّك البعض في إمامته، حيث أن عقم الإمام دلالة نقصٍ فيه والإمام لا يكون إلا كاملا، كما وقف البعض عنده فسمّوا بالواقفية، وذلك لظنهم أنه لا يكون هناك إمامٌ بعده، مع العلم بأن الإخبار عن النبي والأئمة بوجود اثني عشر إمامًا صريحٌ وواضح، وأن الإمام التاسع هو ابن الثامن، أي ابن الرضا... ولذا فقد استمرّت الشكوك والظنون تأخذ الناس يمينًا وشمالا، إلا من اطمأنّ قلبه بالإيمان والتسليم لحكم الله وحكم أوليائه، وحتى هؤلاء فإنهم كانوا في كثيرٍ من الأحيان يلحّون على الإمام بأن يدعو الله لطلب الذرية، فكان يجيبهم بقوله: "إن الله سوف يرزقني ولدًا يكون الوارث لي والإمام من بعدي"(٢٥). أيًا يكن فإن الشيعة عمومًا عاشوا مدةً من الزمن في قلقٍ وتوتّرٍ لعدم ولادة وريثٍ للإمام الرضا، حتى إذا ولد صلوات الله وسلامه عليه كانت تلك بشارة البشارات، وقطعت ولادته الشكّ باليقين، والمدقّق في هذه الأحداث يجدها متشابهةً إلى حدٍّ كبيرٍ مع ما جرى قبيل ولادة الإمام المنتظر، حيث كانت الإقامة الجبرية مفروضةً على الإمام العسكريّ في سامراء، وقد منع الناس من الالتقاء به ورؤيته، حتى أنه كان يحتاج إلى وسائط بينه وبين

شيعته، فلما ولد له الإمام المهدي كان هو ولده الوحيد، حيث لم يرزق غيره، وبقيت ولادته سرًّا إلا على بعض الخواصّ... ولئن لم تشابه هذه الخصيصة ولادة الجواد عليه السلام، إذ لم يتمّ كتمان خبر ولادته، لاختلافٍ في ظروف كلٍّ منهما، إلا أن كونه وحيد والده له مغزًى قد لا نعلمه، ولكننا نحاول فهمه، فإذا كان المهدي وحيد الإمام العسكريّ هو الإمام بعده، مع أنه لم يتجاوز من العمر الخمس سنوات، فهذا الإمام الجواد قد تسلّم مقاليد الإمامة من والده وهو في السادسة أو الثامنة (حسب الروايات المختلفة)، وكانت تلك سابقةٌ في تاريخ الأئمة لم يسبقه إليها أحد، ولعلها تمهيدٌ آخر وخصيصةٌ أخرى يشترك فيها مع الإمام المهدي عجل الله فرجه، وسيأتي الحديث عنها في موضعها من صفات الإمام ضمن هذا البحث.

- إن في كلّ صفةٍ من صفات الإمام دلالةٌ على خصاله أو على دوره في الحياة، وبما أن الإمام معصومٌ عن الزلل كامل الأوصاف، ودوره هو الإمامة وهداية الناس إلى صراط الحق، فإن صفة كونه وحيد والده قد يُستدلّ منها على تفرّده بوراثته في كلّ شيء، لا في إمامته فقط، حتى لكأنه الرافد الأول والوحيد لذلك النهر العظيم، ومن هنا فإن كلّ ما أُثر عن الإمام الرضا من صفاتٍ قد صُبّت في الإمام الجواد، ولعل من أبرز أحاديث الأئمة في فضائل الإمام الرضا قول الإمام الصادق عليه السلام في حقّ ولده الكاظم: "يخرج الله عز وجل منه غوث هذه الأمة وغياثها وعلمها ونورها وفضلها وحكمتها، خير مولود وخير ناشئ، يحقن الله عز وجل به الدماء، ويصلح به ذات البين، ويلم به الشعث، ويشعب به الصدع، ويكسو به العاري، ويشبع به الجائع، ويؤمن به الخائف، وينزل الله به القطر، ويرحم به العباد، خير كهل وخير ناشئ قوله حكم وصمته علم، يبين للناس ما يختلفون فيه، ويسود عشيرته من قبل أوان حلمه"[٢٦]، إن هذه الصفات جميعها قد ورثها الإمام الجواد عن والده، ولم تكن حداثة سنه حين تسنمه مقاليد الإمامة لتقف حائلًا دون كماله وعلمه وتفرّده في خصاله الحميدة، التي ورثها عن أبيه وأجداده الأئمة الطاهرين.

إن استقراء خصوصية ولادة الإمام الجواد وكونه وحيد أبيه يمكن أن يوصل الباحث إلى الكثير من الاستنتاجات، ولكن هذا هو القدر الذي توصّلنا إليه، وننتقل إلى الصفة

التالية من صفاته الشريفة، صلوات الله وسلامه عليه.

ب - الإمام الجواد شبيه الأنبياء:

معلومٌ أن الأئمة عمومًا هم ورثة الأنبياء، وأن منزلة أمير المؤمنين عليه السلام من النبي الأعظم ﷺ شُبّهت منذ البداية بمنزلة هارون من موسى، حيث جاء في أحاديث كثيرة متعدّدة عن النبي توصيفه بهذه الصفة، وذلك في حديث المنزلة المروي عنه ﷺ إذ قال لعليّ: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"، وقد أدلى بهذا الحديث في يوم المؤاخاة ويوم بدر ويوم فتح خيبر وغزوة تبوك يوم غدير خم وحجة الوداع[٢٧]، وقد ذكره الكثير من أعلام علماء السنة[٢٨]، فضلًا عن أعلام علماء الشيعة أجمعين، حتى عُدّ صحيحًا متواترًا لا خلاف فيه.

إن تشبيه الأئمة بالأنبياء برز مع حديث المنزلة، واستمرّ على طول حياة أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة من ولده، ومن مصاديق هذا التشبيه ذاك الحوار الذي تنقله الأخبار "مسندًا إلى صعصعة بن صوحان أنه دخل على أمير المؤمنين لما ولي، فقال: يا أمير المؤمنين! أنت أفضل، أم آدم أبو البشر؟ قال علي عليه السلام: تزكية المرء نفسه قبيح، قال الله تعالى لآدم: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[٢٩]، وإن أكثر الأشياء أباحنيها الله، وتركتها وما قاربتها، ثم قال: أنت أفضل أم نوح؟ فقال علي عليه السلام: إن نوحًا دعا على قومه، وأنا ما دعوت على ظالمي حقي، وابن نوح كان كافرا، وابناي سيدا شباب أهل الجنة، قال: أنت أفضل، أم موسى؟ قال عليه السلام: إن الله تعالى أرسل موسى إلى فرعون فقال: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾[٣٠]، وأنا ما خفت حين أرسلني رسول الله ﷺ بتبليغ سورة براءة أن أقرأها على قريش في الموسم، مع أني كنت قتلت كثيرًا من صناديدهم، فذهبت إليهم وقرأتها عليهم وما خفتهم. قال: أنت أفضل، أم عيسى بن مريم؟ فقال عليه السلام: عيسى كانت أمه في بيت المقدس، فلما جاء وقت ولادتها سمعت قائلًا يقول: اخرجي، هذا بيت العبادة لا بيت الولادة، وأما أمي فاطمة بنت أسد لما قرب وضع حملها كانت في الحرم، فانشق حائط الكعبة وسمعت قائلًا يقول لها: ادخلي، ودخلت في وسط البيت و أنا ولدت به، وليس لأحد هذه الفضيلة لا قبلي ولا بعدي"[٣١]... معلومٌ أن ما سلف من فضائل أمير المؤمنين المذكورة وتفضيله على الأنبياء،

هي حلقةٌ في سلسلة المقارنة بين الأئمة والأنبياء، حتى عُدّت "مرتبة الأنبياء مطلقًا تحت مرتبة هؤلاء الأنوار، فيكون كلٌّ من الأنوار الأربعة عشرة أفضل من الأنبياء حتى أولى العزم منهم أيضا لكون الأنبياء مطلقًا مخلوقين من أنوار هؤلاء الأنوار، والنور أسفل من المنير بمراتب كثيرة"(٣٢)...

ومعلومٌ أيضًا أن الأئمة عليهم السلام هم أوصياء النبي الأعظم ﷺ، وأنهم يرث بعضهم بعضا، وأن لكلٍّ منهم من المعاجز الباهرة ما أظهر فضله ومصداقية إمامته، ولو لم يكن لهم إلا العلم الغزير والتقى والورع والكمال الأخلاقي الذي ليس له نظير لكفاهم ذلك دليلًا، فكيف وهم على ما هم عليه من الخصال الحميدة التي لا تجارى، والتي اعترف بها وأشاد برقيّها المخالف قبل المؤالف؟!

إن الإمام الجواد عليه السلام هو الحلقة التاسعة في تلك السلسلة المباركة من أئمة الهدى، وهو يشترك مع آبائه الطاهرين في تلك الفضائل الكاملة، ونحن إذ نرصد كونه "شبيه الأنبياء" نلاحظ ذلك كله، ونعود في صيغة هذه الصفة إلى حديث الإمام الرضا عليه السلام بعد ولادة الإمام الجواد عليه السلام، إذ قال: "قد ولد لي شبيه موسى بن عمران فالق البحار، وشبيه عيسى بن مريم، قُدّست أمٌّ ولدته طاهرةٌ مطهّرة."(٣٣)، ونحن إذ نورد هذا الحديث سنحاول أن نستدلّ منه على عناصر الشبه التي رمز إليها الإمام الرضا في حديثه.

١- شبيه موسى: لقد أورد القرآن الكريم الكثير من أخبار النبي موسى عليه السلام ومعجزاته، وإنه من الواضح أن الإمام إذ يبلّغ عن ولادة ولده العظيم، ويصفه بـ"شبيه موسى بن عمران فالق البحار"، قد أراد أمرين:

- أن يربط بين ولادة موسى نبيًّا ومخلّصًا لقومه من شرّ فرعون، بعدما يئسوا من قدومه، وبين ولادة الجواد إمامًا ووارثًا لأبيه وهاديًا إلى سبل الرشاد وملاذًا للشيعة بعد آبائه، بعدما يئسوا من قدومه، كما ذكرنا سابقًا، حتى شكّ بعضهم بإمامة الرضا عليه السلام واتهموه بالعقم وعدم الكمال، وظنّ البعض الآخر أنه آخر الأئمة وتوقّفوا عنده فسُمّوا بالواقفية. وإن ذلك التأخير في قدوم النبي موسى سابقًا ثم في قدوم الإمام الجواد، كان تمحيصًا بالبلاء للمؤمنين، وذلك حتى يميز الخبيث من الطيّب، وإن ولادة الجواد كما ولادة موسى كانت فرجًا عظيمًا للمؤمنين، وهذا

وجهٌ من وجوه التشابه بينهما.

- أن يذكّر بأعظم معاجز النبي موسى، ألا وهو فلق البحر لبني إسرائيل، وأن يؤكّد لمن حوله أن ولده هذا تنتظره معاجز كثيرة، وستقع على يديه خوارق ترقى إلى مستوى فلق البحر ذاك.

إن التاريخ يخبرنا أن الإمام الجواد "كانت تُطوى له الأرض، فيصلّي في يومٍ واحدٍ بمكة والمدينة والشام والعراق"[٣٤]، وقد روى ابن الصبّاغ المالكيّ عن أبي خالد قال: "كنت بالعسكر (وهو محلة في سامراء)، فبلغني أنّ هناك رجلاً محبوساً أُتي به من الشام مُكبَّلاً بالحديد وقالوا: إنّه تنبّأ! فأتيتُ باب السجن ودفعت شيئاً إلى السجّان حتّى دخلتُ عليه، فإذا برجلٍ ذي فَهمٍ وعقل ولُبّ، فقلت له: يا هذا، ما قصّتك؟ قال: إنّي كنتُ رجلاً بالشام أعبُد اللهَ تعالى في الموضع الذي يُقال إنّه نُصب فيه رأسُ الحسين عليه السلام... فبينما أنا ذاتَ يومٍ في موضعي مُقْبِل على المحراب أذكر الله، إذ رأيتُ شخصاً بين يَدَيّ، فنظرت إليه فقال لي: قُم. فقمتُ معه، فمشى قليلا... فإذا أنا في مسجد الكوفة، فقال لي: تعرف هذا المسجد؟ قلت: نعم، هذا مسجد الكوفة. فصلّى فصلّيتُ معه، ثمّ خرج فخرجت معه، فمشى قليلا... فإذا نحن بمكّة المشرّفة، فطاف بالبيت فطفتُ معه، ثم خرج فخرجت معه، فمشى قليلا... فإذا أنا بموضعي الذي كنت فيه بالشام... ثمّ غاب عنّي، فبقيتُ متعجّبًا ممّا رأيت. حتى كان العام المقبل، فإذا بذلك الشخص قد أقبل عليّ، فاستبشرت به فدعاني فأجبتُه، ففعل بي كما فعل بي في العام الماضي، فلمّا أراد مفارقتي قلتُ له: سألتك بحقّ الذي أقدرَك على ما رأيتُ منك، إلاّ ما أخبرتَني مَن أنت، فقال: أنا محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب. فحدّثت بعضَ مَن كان يجتمع لي بذلك، فرفع ذلك إلى محمّد بن عبدالملك الزيّات (الوزير العباسي)، فبعث إلى مَن أخذني في موضعي وكبّلني في الحديد، وحملني إلى العراق وحبسني كما ترى، وادّعى عليّ بالمُحال. قال أبو خالد: قلتُ له: فأرفعُ عنك قصّةً (أي ورقة فيها شرح حالك) إلى محمّد بن عبدالملك الزيّات؟ قال: افعَلْ. قال: فكتبتُ عنه قصّةً وشرحتُ فيها أمره ورفعتُها إلى محمّد بن عبدالملك، فوقّع على ظهرها: قُلْ للذي أخرجك من الشام إلى هذه المواضع التي ذكرتَها، يُخرِجك من السجن الذي أنت فيه! فقال أبو خالد: فاغتَممتُ لذلك وسُقط في يدي، وقلت: إلى غدٍ آتيه (أي هذا السجين) وآمرُه بالصبر وأعِده من الله بالفَرَج، وأُخبره بمقالة

هذا الرجل المتجبّر (أي الزيّات). فلمّا كان من الغد باكرت السجن... فإذا أنا بالحرسِ والجندِ وأصحابِ السجن وناسٍ كثيرين في هَرَج! فسألتُ: ما الخبر؟! فقيل لي: إنّ الرجل المتنبّئ المحمول من الشام فُقِد البارحةَ من السجن، لا ندري كيف خَلَص منها، وطُلِب فلم يُوجد له أثرٌ ولا خبر، ولا يدرون... أغُمِس في الماء، أم عُرِج به إلى السماء! فتعجّبتُ من ذلك وقلت: استخفافُ ابن الزيّات بأمره، واستهزاؤه بما وقّع به على قصّته، خلّصه من السجن."[٣٥]...

إن الخبر السابق بمصادره العديدة الموثوقة، وغيره من أخبار مشابهة، تؤكّد على أن للجواد معاجز وكرامات فضّله الله تعالى بها على العالمين ليظهر فضله ويؤكّد إمامته ووراثته لأبيه، علمًا أن حياة الإمام الجواد سلام الله تعالى عليه هي بكاملها كرامة ومعجزة، وسيتبيّن لنا ذلك أثناء هذا البحث، وقد شابه بهذه المعاجز أعظم الأنبياء، بمن فيهم أولى العزم، كموسى وعيسى عليهما السلام. ولعلّ في ذكر طائفةٍ من معاجزه ما يفي بالغرض:

- "حدثنا سفيان، عن عمارة بن زيد، عن إبراهيم بن سعيد قال: رأيت محمد بن علي عليه السلام وله شعر أو قال وفرة مثل حلك الغراب مسح يده عليها فاصفرت، ثم مسح بظاهر كفه فاحمرت، ثم مسح بباطن كفه عليها فصارت سوداء كما كانت، فقال لي: يا ابن سعيد، هكذا تكون آيات الامامة، فقلت: هكذا رأيت أباك عليه السلام، وما أشك أنكم ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣٦]، فضرب بيده إلى التراب فجعله دنانير، فقال: في مصرك يزعمون أن الامام يحتاج إلى مال، فبلّغهم أن كنوز الارض بيد الامام."[٣٧].

- "روي أن أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام توضأ في مسجد ببغداد يعرف موضعه بدار المسيب في أصل نبقة يابسة، فلم يخرج من المسجد حتى اخضرت وأينعت."[٣٨].

- "حدثنا سفيان عن أبيه قال: قال محمد بن يحيى: لقيت محمد بن علي الرضا عليه السلام على وسط دجلة فالتقى له طرفاه حتى عبر، ورأيته بالأنبار على الفرات فعل مثل ذلك"[٣٩].

- "روي عن محمد بن أورمة عن الحسين المكاري قال: دخلت على أبي جعفر ببغداد وهو على ما كان من أمره فقلت في نفسي: هذا الرجل لا يرجع إلى موطنه أبدا،

وأنا أعرف مطعمه (أي ما هو فيه من رفاهية في طعامه وشرابه ومعيشته)، قال: فأطرق رأسه، ثم رفعه وقد اصفر لونه فقال: يا حسين خبز شعير وملح جريش في حرم جدي رسول الله أحب إلى مما تراني فيه"[٤٠].

- "حدثنا أبو محمد قال: حدثنا عمارة بن زيد قال: قال إبراهيم بن سعد: رأيت محمد بن علي عليه السلام يضرب بيده إلى ورق الزيتون فيصير في كفه ورقًا (أي فضة) فأخذت منه كثيراً وأنفقته في الأسواق فلم يتغير"[٤١].

ويضيق المقام في هذا البحث عن إيراد جميع معاجز الإمام الجواد، ولكن بعضها يكفي ولذا فإننا نستنتج مما سبق أوجه شبهه بالنبي موسى، لننتقل إلى رصد أوجه شبهه بالنبي عيسى عليه السلام، كاستدلالٍ على الشقّ الثاني من الحديث "شبيه عيسى بن مريم".

٢- شبيه عيسى: لقد شابه الإمام الجواد نبي الله عيسى عليه السلام بأمورٍ عديدة، منها:

• أنه وُصف بـ"المبارك"، إذ أن الله عزّ وجلّ وصف عيسى في كتابه الحكيم بقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[٤٢]، وكذلك الإمام الجواد، فعن أبي يحيى الصنعاني قال: "كنت عند أبي الحسن الرضا عليه السلام فجيء بابنه أبي جعفر عليه السلام، وهو صغير، فقال: هذا المولود الذي لم يولد مولودٌ أعظم بركةً على شيعتنا منه"[٤٣]، ولعل بركته تكمن في أنه كما عيسى عليه السلام جاءا منقذَين، بعدما كان الانتظار قد ذهب أو كاد يذهب بإيمان البعض ويقينهم وتسليمهم بأمر الله.

• أنه تكلّم في المهد، فقد قال الله تعالى لنبيه عيسى: ﴿...إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا...﴾[٤٤]، وإن عيسى نطق في المهد ليدافع عن أمه مريم أمام بني إسرائيل، وكذلك الإمام الجواد نطق في المهد أكثر من مرة، كما دافع عن أمه أيضا، وذلك على النحو الآتي:

- نُقل عن السيدة حكيمة بنت الإمام الكاظم أنها قالت: "قال لي أبو الحسن الرضا عليه السلام: يا حكيمة الزمي مهده، قالت: فلمّا كان في اليوم الثالث (بعد ولادته)، رفع بصره إلى السماء ثم نظر يمينه ويساره ثم قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. فقمتُ ذعرة فزعة! فأتيتُ أبا الحسن عليه السلام، فقلتُ: سمعتُ من هذا الصبي عجبا، فقال: وما ذاك؟ فأخبرته الخبر. فقال: يا حكيمة ما ترون من

عجائبه أكثر"[٤٥]، ولعل كلام أبي جعفرٍ في المهد وتشهّده كان أمرًا مألوفًا عند الأئمة عليهم السلام حين وبعد ولادتهم، حيث ورد عن كلٍّ منهم أحاديث في مثل ذلك نمتنع عن إيرادها هنا منعًا للاستطراد.

- عن أبي محمد الحسن بن علي العسكريّ عليه السلام، قال: "كان أبو جعفر عليه السلام شديد الأدمة، ولقد قال فيه الشاكون المرتابون - وسنّه خمسة وعشرون شهرا - إنه ليس هو من ولد الرضا عليه السلام، وقالوا لعنهم الله: إنه من شنيف الأسود مولاه، وقالوا: من لؤلؤ... فنطق عليه السلام بلسان أرهف من السيف، وأفصح من الفصاحة، يقول عليه السلام: الحمد لله الذي خلقنا من نوره بيده، واصطفانا من بريّته، وجعلنا أمناءه على خلقه ووحيه. معاشر الناس! أنا محمد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي سيد العابدين بن الحسين الشهيد بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وابن فاطمة الزهراء، وابن محمد المصطفى، (صلوات الله عليهم). ففي مثلي يشك، وعليّ وعلى أبويّ يفترى، وأعرض على القافة!؟ (والقافة هم متتبّعو الأنساب عند الاشتباه والعياذ بالله)، وقال: والله إنني لأعلم بأنسابهم من آبائهم. إني والله لأعلم بواطنهم وظواهرهم، وإني لأعلم بهم أجمعين، وما هم إليه صائرون. أقوله حقا وأظهره صدقا، علما ورّثناه الله قبل الخلق أجمعين، وبعد بناء السماوات والأرضين. وأيم الله! لولا تظاهر الباطل علينا، وغلبة دولة الكفر، وتوثّب أهل الشكوك والشرك والشقاق علينا، لقلت قولًا يتعجب منه الأولون والآخرون... ثم وضع يده على فيه، ثم قال: يا محمد! اصمت كما صمت آباؤك"[٤٦]... وقد ذُكِر أن الإمام الرضا قال عن تلك الحادثة: "الحمد لله الذي جعل فيّ وفي ابني محمد أسوة برسول الله وابنه إبراهيم"[٤٧]، في إشارةٍ إلى قصة اتّهام مارية رضوان الله تعالى عليها، زورًا وبهتانا.

إن هذه الحادثة تؤكّد الشبه العظيم بين الإمام الجواد وبين نبي الله عيسى في أكثر من مورد، وقد واجه الجواد مثل هذه التهم الباطلة التي لم يواجهها غيره من أئمة أهل البيت لخصوصية ولادته، بعدما يئس العامة وبعض الشيعة أو كادوا من إنجاب الإمام الرضا لوريثه، ومع أنه كان يطمئنهم دائمًا كما تقدّم، إلا أن الشكّ يغلب على القلوب التي لم تطمئن بذكر الله، فيقع أهلها في الباطل والاتهام الفظيع والعياذ بالله، ولكن الله أنطق عبده

ووليه الإمام الجواد، وله من العمر سنتين وشهرا، ليردّ على هؤلاء المرتابين بالقول البليغ، ما أفحمهم به وأذهب عن الناس الشك وأظهر الحقّ، كما فعل عيسى حينما اتهم بنو اسرائيل أمه الطاهرة ظلمًا وبهتانا... ولعلّ هذه الحقيقة بالذات هي ما حدت بالإمام الرضا إلى أن يختم حديثه السابق عن شبه ولده بالأنبياء بقوله: "قُدّست أمٌّ ولدته طاهرةٌ مطهّرة"، لينفي الريب عنها رضوان الله تعالى عليها، بالإضافة إلى ما أوردناه سابقًا من فضلها المذكور على لسان النبي أولًا، وعلى لسان الإمام الكاظم الذي أقرأها السلام ثانيا.

لا تقتصر عوامل الشبه بين الإمام الجواد والنبي عيسى على نطقه في المهد، بل هي أيضًا تمتدّ إلى استلامه مقاليد الإمامة وهو في عمرٍ صغير كإيّاه، حيث نُقل عن "محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن صفوان بن يحيى قال: قلت للرضا عليه السلام: قد كنا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر عليه السلام فكنت تقول: يهب الله لي غلاما، فقد وهبه الله لك، فأقرّ عيوننا، فلا أرانا الله يومك فإن كان كون فإلى من؟ فأشار بيده إلى أبي جعفر عليه السلام وهو قائم بين يديه، فقلت: جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين؟! فقال: وما يضره من ذلك فقد قام عيسى عليه السلام بالحجة وهو ابن ثلاث سنين"[٤٨]... إن هذه الصفة الاستثنائية، التي يشبه بها الإمام الجواد النبي عيسى قد أتى ذكرها على لسانه هو نفسه، مما يجعلنا ننسبها أيضًا إلى شبهه بنبيّ الله يحيى، الذي أوتي الحكم صبيا، حيث أنه نُقل عن علي بن أسباط أحد أصحاب الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: "رأيت أبا جعفر عليه السلام وقد خرج عليّ، فأخذت النظر إليه، وجعلت أنظر إلى رأسه ورجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر، فبينا أنا كذلك حتى قعد، (وفي البصائر فخرّ ساجدًا)، فقال: يا علي إن الله احتجّ في الإمامة بمثل ما احتجّ به في النبوة، فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[٤٩] ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾[٥٠] ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[٥١] فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي، ويجوز أن يؤتاها وهو ابن أربعين سنة"[٥٢]... لقد كان حديث الإمام الرضا المتعلّق بشبه ولده بالأنبياء حديثًا يفتح الآفاق على تفاسير عديدة، فهو يصرّح بشبهه بموسى وعيسى، ولعله يرمز أيضًا إلى شبهه بعموم الأنبياء في صفاتٍ كثيرةٍ ترك إظهارها للمستقبل، كالنبي يحيى الذي آتاه الله الحكم صبيًا!...

إن الإمام الجواد هو أول إمامٍ يستلم مقاليد الإمامة في عمر الطفولة، فإنه لما " بلغ عمره ستّ سنين وشهور قتل المأمون أباه، وبقيت الطائفة (أي الشيعة) في حيرة، واختلفت الكلمة

بين الناس، واستصغر الناس سنّ أبي جعفرٍ عليه السلام، وتحيّر الشيعة في سائر الأمصار"[٥٣]، وقد قال الإمام الرضا عليه السلام أيضاً لمعمر بن خلاد - وهو أحد أصحابه -: "أبو جعفر قد أجلسته مجلسي، وصيرته مكاني، وقال: إنا أهل بيت يتوارث أصاغرنا أكابرنا القذّة بالقذّة"[٥٤]، وقال الإمام الرضا عليه السلام بعدما وُلِد له أبو جعفر عليه السلام: "إن الله قد وهب لي من يرثني ويرث آل داود"[٥٥]... إن كلّ هذه الأحاديث التي استبق بها الإمام الرضا حادثة استشهاده في وقتٍ مبكر، لعلمه بدواخل الناس وشكوكهم، هي قرائن أخرى تضاف إلى ما سبق للتأكيد على ذلك الشبه بالأنبياء الذي نصّ عليه الإمام، ولتوضيح عدم الارتباط بين العمر والأهلية، فالعلم الإلهي لا علاقة له بالعمر، لأن الإمام علمه لدنيّ لا دنيويّ، والله قادرٌ على أن يهبه العلم والحكمة صبيا، كما وهبهما قبله لعيسى ويحيى عليهما السلام. وقد روي أيضًا أنه "جيء بأبي جعفر عليه السلام إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله بعد موت أبيه، وهو طفل، وجاء إلى المنبر ورقى منه درجة ثم نطق فقال: أنا محمد بن علي الرضا، أنا الجواد، أنا العالم بأنساب الناس في الأصلاب، أنا أعلم بسرائركم وظواهركم، وما أنتم صائرون إليه، علمٌ منحنا به من قبل خلق الخلق أجمعين، وبعد فناء السموات والأرضين، ولولا تظاهر أهل الباطل، ودولة أهل الضلال، ووثوب أهل الشك، لقلت قولًا تعجب منه الأولون والآخرون"[٥٦].

إن ما ذكرناه من أن الإمام الجواد استلم الإمامة في طفولته، يقودنا إلى شبهٍ آخر بينه وبين الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف، حيث أنه استلم الإمامة من أبيه العسكريّ وهو في عمر الخامسة، ولعلّ هذه الخاصية التي كان الإمام الجواد هو الأسبق إليها، كانت بمثابة تمهيدٍ لهذه الفكرة عند الشيعة، حيث تمت مواجهتها من قبلهم بالاستغراب والاستنكار في البداية، ثم بالتقبل والقبول بعد ذلك، ومعلومٌ أن الإمام الهادي أيضا استلم الإمامة بعد استشهاد أبيه الجواد وهو في عمر الثامنة، مما يدلّ على أن الإمام الجواد كان فاتح عهد هذه الظاهرة التي بدأت به، ثم صارت مألوفةً مقبولةً عند الشيعة، حتى بلغوا بها مع الإمام المهدي مرحلة التقبل والتسليم، حتى دون رؤيتهم له على النحو الذي رأوا به آباءه، حيث كانت ولادته مخفيةً إلا على الخواص، وهو أمرٌ ليس هنا مجال بحثه، ولكن لنا أن نلتفت إلى هذه النقطة المهمة للتعرّف عن كثبٍ على دورها في حياة الإمام الجواد وأهل زمانه، ثم على حياة الأئمة من بعده وأهل زمانهم، وبالأخص حياة الإمام الحجة بن الحسن وأهل زمانه، وهم أهل كل زمانٍ بعده، حيث أنه خاتم الأوصياء وصاحب العصر والزمان...

خلاصة المبحث الأول:

إن صفات الإمام الجواد عليه السلام الاستثنائية، وحيد الرضا وشبيه الأنبياء، قد أعطت لشخصيته القدسية طابعًا فريدًا ميّزه عن سائر الأئمة من آبائه وأولاده الطاهرين.

لقد كان الإمام الجواد وحيد أبيه، على الأغلب الأعمّ عند المؤرخين، كما أسلفنا، مما رفع قدره أكثر في عيون المحيطين به رغمًا عنهم، حيث أنه كان الملاذ الوحيد لهم بعد أبيه الإمام الرضا عليه السلام في ذلك الظلام المدلهم، وقد جاءت ولادته بعد انتظارٍ طويل، لتكون ميزانًا لأهل الحق يمتازون به عن أهل الباطل والتشكيك، ومما جعل التقدير المنصبّ على والده الرضا عليه السلام ينتقل إليه أيضاً، خاصةً بعدما رأى الناس من أمره عجبا، وتأكّدوا من إمامته بالدليل البيّن، حيث خصّه الله بالمعاجز الباهرة التي شابه بها الأنبياء، وكان لها دورٌ في دحض كل افتراء وادّعاء...

لقد بيّنّا في هذا المبحث أهمية تلك الصفات الخاصة التي تميّز بها، واستدللنا عليها من الأحاديث المتواترة التي وصلتنا من خلال رواة الحديث في كتب العامة والخاصّة، وإن هذه الصفات الفريدة للإمام لم تكن انعكاسًا لظروفه الحياتية فحسب، بل كانت تدبيرًا إلهيًّا من لدن حكيمٍ خبير، ولعل بعض الحكمة من ذلك هو إضفاء التميّز على تلك الشخصية، لحاجة المجتمع البشريّ في عصره إلى مثل ذلك التميّز، وليكون أكثر تأثيرًا فيه.

لقد رصدنا في المبحث الأول صفتين أساسيتين اتّصف بهما الإمام الجواد، هما كونه وحيدًا لوالده أولًا، وكونه شبيه الأنبياء ثانيًا، وقد شرحنا الظروف التي أدّت إلى كلٍّ من هاتين الصفتين، اللتين تبرز من خلالهما إرادة الله الذي شاء أن يكون لوليّه هذه الصفات، فهي لم تُحصّل بطريق الاكتساب للإمام، بل بطريق المشيئة الإلهية المباشرة، حيث أراد الله أن يكون الجواد عليه السلام وحيد الرضا عليه السلام، كما شاء أن يهبه شبهًا بالأنبياء، موسى وعيسى ويحيى عليهم السلام، عبر أحداثٍ إعجازية قام بها في مواقف تشبه مواقفهم، وقد انعكست هذه المشيئة واقعًا عاشه الإمام بكلّ تفاصيله، وكان له دورٌ كبيرٌ في مسيرته الإرشادية لاحقًا، والتي سنحاول من خلال تتبّعها أن نرصد أثر تلك الصفات الاستثنائية في تلك المسيرة، وهذا ما سيتمحور حوله المبحث الثاني من هذه الدراسة.

المبحث الثاني

الإمام الجواد ـ شباب الأئمة، مرشدًا وهاديًا وشهيدا

عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: "... أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد"(٥٧).

لقد أوردنا في المبحث الأول هذا الحديث الشريف، في جملة أحاديث أخرى عن الأئمة عليهم السلام والنبي ﷺ، كان الهدف منها التدليل على وحدة أنوار أهل البيت وأنهم يعكسون النموذج الإنساني الأكمل الذي خلقه الله عزّ وجلّ لبريّته، كلٌّ بطريقةٍ تتناسب مع ما اقتضته الحكمة الإلهية والوظيفة الإرشادية له، وقد كان للإمام الجواد ذلك القدر الموسوم باستثنائية صفاته، التي عرضناها في المبحث الأول أيضا.

إن تلك الصفات قد تلتها صفاتٌ أخرى جسّدت واقع حياة الإمام وظروفه التي عاشها، على مستوى شيعته وأنصاره، وعلى مستوى أهل الحكم من مناوئيه والكائدين له، كما جسّدت خلقياته الرفيعة التي تحلّى بها، شأنه شأن آبائه الطاهرين.

أ - الإمام الجواد - شباب الأئمة:

لا تختلف الأخبار في أن الإمام الجواد لم يعمّر، أي أنه استشهد في عمر الشباب، ومع أن مدة إمامته كانت سبعة عشر سنة، وهي مدةٌ طويلةٌ نسبيًا، بالقياس إلى عمره الشريف، إلا أن طول هذه المدة ناتجٌ عن استلامه مقاليد الإمامة في عمرٍ صغير، حيث أنه قام بأعبائها وهو في السادسة أو الثامنة، كما أوردنا في المبحث السابق.

ولنا أن نرصد في خلال هذه المدة من حياة الإمام، ما واجهه من تحدّيات، كان أولها إثبات إمامته لشيعته، ثم إلقاء الحجة على كلّ من تحدّاه بعلمه وناوأه، بالإضافة إلى دوره الإرشاديّ في حياة الناس، حيث أنه هو الإمام المفترض الطاعة الذي يعود إليه المؤمنون في شؤون حياتهم، وقد استطاع سلام الله عليه أن يؤدّي هذه المهمة المصيرية والمسؤولية الجسيمة، بنفس الكفاءة والأهلية التي أدّاها بها أسلافه، صلوات الله عليهم أجمعين، ولعلّ في هذه النقطة بالذات، نقطة شبابه وكفاءته للقيام بأعباء الإمامة مع صغر سنه، أهمية خاصة، يمكن أن نستدلّ بها على أمورٍ عديدة:

- **سدّ ثغرةٍ في البناء الاجتماعيّ والدينيّ للأمة:** فالأئمة السابقون جميعًا كانوا يقومون

بمهامّ الإمامة بعدما يتمّ النصّ عليهم من قبل الإمام السابق، وتتبيّن للناس أهليتهم وجدارتهم بمنصب الإمامة، من خلال خصالهم الحميدة واشتهارهم بالعلم والتقوى والكمال الأخلاقيّ، بحيث يتفوّقون على كلّ أهل زمانهم. إن الأئمة السابقون كانوا يتسنّمون منصب الإمامة في أعمارٍ تكون قد برزت فيها كفاءاتهم العالية، مما يبعد الشكّ والريب في أمر أهليّتهم، وإذا حدث وادّعى الإمامة من هو غير جديرٍ بها، افتضح أمره بسهولةٍ أمام الجميع، حين يواجهه الإمام بما يقصر فهمه عن إدراكه، كما جرى بين الإمام الكاظم وأخيه عبد الله الأفطح، فقد ادّعى الإمامة، وهو الأخ الأكبر للإمام الكاظم عليه السلام بعد إسماعيل. وفي مواجهة هذا الإدّعاء استخدم الإمام عليه السلام أسلوب المعجزة الّتي تميّزه عن عبد الله باعتباره إمامًا مفترض الطاعة، وذلك أمام جمع من خواصّ الشيعة مثبتًا بهذا الأسلوب لإمامته. ويعلّل الكشّيّ سبب ذهاب الشيعة إلى القول بإمامة عبد الله الأفطح ابن الإمام الصادق عليه السلام بما روي عن الأئمّة عليهم السلام: "الإمامة في الأكبر من ولد الإمام إذا مضى". ثمّ إنّ منهم من رجع عن القول بإمامته لمّا امتحنه بمسائل من الحلال والحرام ولم يكن عنده فيها جواب[٥٨].. ومع أن الإمام الجواد برز بعلمه وتميّزه منذ الطفولة إلا أنّ أمر إمامته كان مستهجنًا لدى المجتمع المحيط، فهو لم يكن مألوفا، ولكن تقديم الإمام الرضا له كمولودٍ مبارك، وكشبيهٍ للأنبياء، جعل الناس تتطلّع إليه لترى ما سيكون منه، ثم كان ما صدر عنه من إثبات الحجة عبر بروزه العلمي على كلّ من خالفه، رغم حداثة سنه، فاطمأنّت القلوب وتمّ تقبّل الأمر... إن المجتمع البشريّ عمومًا متغيّرٌ في قناعاته ورؤاه، فهو يحتاج إلى ما يوقظه من غفلته بين الحين والحين، وقد كان الأنبياء سابقًا يُبعثون إلى أقوامهم بمعاجز تتناسب مع معتقدات وعادات أولئك الأقوام، حيث كانت معجزة موسى مثلًا هي تحدي السحرة، في زمنٍ ازدهر فيه السحر، حتى جاءهم بما ليس له في السحر مثيل، من تحوّل العصا إلى حية، واليد البيضاء، وغيرها من آيات الله التسعة البينات التي سلّحه بها لإثبات نبوّته، بينما كانت معجزة عيسى الكبرى هي إحياء الموتى، في زمنٍ اشتُهر فيه الطبّ وإنجازاته، فكانت معجزته تفوق الطب وتخترق حواجز الطبيعة، أما معجزة نبينا محمدٍ ﷺ فقد كانت بلاغة القرآن الكريم وإخباره بالغيب والمكنون، في مجتمعٍ يقدّس الفصاحة ويؤمن بالكهانة والعرافة، فتُعلّق الأشعار المتفوّقة على أستار الكعبة، ويلجأ العرب إلى كهنتهم للتنبّؤ بالغيب، فأتى النبي ليتحدّاهم بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويخبرهم بما كان وبما

سيكون... هذه أمثلةٌ بارزةٌ على مجتمعاتٍ بشريةٍ شتى خاطبها الله على قدر عقولها، وثبّت عليها الحجة في أنبيائها، وكذلك الحال مع الأئمة المعصومين، الذين قاموا بدورهم في هداية الناس وأثبتوا إمامتهم بحسب المعطيات المتوفرة في قناعات مجتمعاتهم... غير أن عصر الإمام الجواد بدا مختلفًا، وكان لا بدّ من هزّةٍ توقظ المجتمع الغافل الذي صار يجادل في كلّ شيء، ويناقش في كلّ شيء، بعدما تداخلت الثقافة الإسلامية مع ثقافات الأمم الأخرى الدخيلة في الإسلام، بعد الفتوحات والتبادل الثقافيّ والترجمات التي قام بها العلماء للكتب اليونانية والرومانية والهندية وغيرها إلى اللغة العربية... لقد قام الأئمة السابقون، الباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام، الذين ازدهرت في عصرهم الترجمات الدخيلة، قاموا بالردّ على كلّ هؤلاء في حوارٍ فكريٍّ وديني رصين، من خلال احتجاجاتهم على أئمة المذاهب[٥٩] ولكنّ الردّ العمليّ كان بالمرصاد، وشاء الله أن يكون الإمام الجواد نفسه هو الردّ، وأن تكون شخصيته الفذّة، كطفلٍ إمام، ثم كشابٍّ إمام، هي الكفيلة بإثبات حقّانية المذهب الشيعي الجعفريّ، وذلك بالدليل العمليّ الملموس، الذي تمثّل بالمناظرات المتعدّدة التي واجهها الإمام مع كبار علماء ذلك العصر، الذين تصاغرت علومهم في فناء عظمة علومه الربانية، ليكون "شباب الأئمة" حجةً على شباب الأمة وكهولها، تمامًا كما كان "كهول الأئمة" حجةً على السابقين منها.

- **حسن الاقتداء:** إنه مما لا شكّ فيه أن الأئمة عليهم السلام هم القدوة للبشر، كما كان جدهم خاتم الأنبياء، وهم المثال والنموذج لكلّ إنسان، في الخلق والدين والحياة، ولعل الاقتداء بهم لم يكن ليقتصر على فئةٍ من المجتمع دون فئة، وبما أنه من عادة الإنسان أن يقتدي بمن هو في مثل سنه، لظنه بأنه يواجه من المصاعب مثل ما يواجهه، ويرى الأمور بالعين التي يراها بها، فيكون اقتداؤه به أقرب إلى نفسه... ولئن كانت سيرة حياة النبي والأئمة في مختلف مراحل حياتهم بحد ذاتها قدوة للناس في كل مرحلة عمرية، إلا أنه من الأثبت والأرسخ أن يكون الإمام المقتدى به في مثل عمر المقتدي، وقد يبتلى الطفل أو الفتى بيتمٍ مبكر، فيجد ذلك ذريعةً ليتخطّى حدود الالتزام ويجنح نحو الفساد بحجة أنه يتيمٌ لا والد له ولا راعي لشأنه، حتى إذا تبيّن له أن إمامه كان في مثل سنه حينما غدا مسؤولًا عن أمة جده، عارفًا بأحكام دينه ضليعًا فيها هاديًا للناس إليها، توقّف مليًّا وأمعن النظر، ليعلم أن العلم والفقه والتقوى لا عمر محدّد لهما، ولا يُتم يحول بين المرء وبينهما، ويغدو الإمام

قدوةً لكلّ طفلٍ وشابٍّ يستصغر قدر نفسه إن تجرّأ على مخالفة ربه، وفي الناس طفلٌ قام إمامًا وهو في مثل سنه أو أقلّ.

- **عمرٌ قصيرٌ وخيرٌ كثير:** لا تقاسُ الإنجازات الدينية والفكرية بمرور الأعوام وحدها، فلقد تعوّد الناس أن ينظروا إلى العالم الفقيه الذي أمضى سنواتٍ طويلةٍ في البحث والدراسة، نظرة إكبارٍ وإجلال، بغضّ النظر عن اطلاعهم الكافي على مستوى تحصيله في هذه السنوات، أي أن الكمّ الزمنيّ للتحصيل قد يغلب في نظر الكثيرين على النوع، ويحوز ثقةَ الناس أولئك الذين شابت رؤوسهم في التحصيل، بينما قد يستخفّون ويستصغرون قدر الشابّ الذي لم يمضِ زمنًا طويلًا فيه... على أن حياة الإمام الجواد القصيرة زمنًا، الزاخرة بصنوف الإنجازات الفكرية الباهرة، والتفوّق الدينيّ والرقيّ على كلّ صعيد، بحيث أنه كان الأكمل بين الحاضرين في عصره، مع أنهم جميعًا أكبر منه سنًّا بدرجات، إن تلك الحياة هي نفسها شاهدةٌ على أن القدر العلميّ والتوفيق الإلهي لا يُقاس بعدد السنوات، وليست مدة التحصيل العلميّ دالّةً بالضرورة على إحراز المراتب الإيمانية السامقة، والوصول إلى الكمال الإنسانيّ، ولئن كان توفيق الإمام الجواد مقرونًا بالحكم الإلهي والتسديد والتقدير، إلا أنه كان جديرًا به من دون شك، ولذا فإنه قد أعطى عبر حياته القصيرة التي تعجّ بالكمال، البرهان الذي لا يقبل الدحض على هذه الحقيقة، أن الكمال الإنسانيّ لا يُنال بكثرة التحصيل وكميّته، بل بنوعيّته وصفته.

ب - الإمام الجواد - التقيّ:

إن من أبرز صفات الإمام محمد الجواد هي صفة التقيّ، وقد أعادها المؤرّخون إلى سببين:

- التقيّ من التقوى، ويعود ذلك إلى شدة تقواه وورعه الموصوفان، حتى أنه كان مثالًا للتقى مع حداثة سنه، والشباب عمومًا لا تغلب عليهم صفة الورع والإيمان، فضلًا عن التقوى، وهي أعلى مراتب الإيمان، ذلك أنه في كلّ عصرٍ تكثر فيه الفتن والمحن وتستعبد أهواءُ الحكام والسلاطين عقولَ الرعية، تغدو فئة الشباب أكثر تهورًا وطيشًا وانسياقًا وراء الهوى والفساد، لأن المجتمع ليس بالقدر الكافي من المسؤولية ليحتضن الشباب، بل إن التهاء السلاطين بشهواتهم، شهوة السلطان وبسط النفوذ من ناحية، وشهوة النساء التي

شجّعتها كثرة الجواري والرقيق بسبب الحروب المتلاحقة من ناحية أخرى، قد أدّت إلى انحراف العنصر الشاب عن الصراط السوي، ذلك أن صلاح الشباب مرهونٌ بأمرين: صلاح المربّين لهم، ونقاوة الأجواء المحيطة بهم، لأنهم بطبعهم ميّالون للهوى، تشجّعهم طاقتهم الجسدية على اتّباع الشهوات، إذا لم يتحصّنوا بالالتزام الدينيّ الصحيح وحسن التربية والتهذيب، وبما أن كلا هذين الأمرين لم يكونا متوفرَين في شباب عصر الإمام التقيّ، فقد كان لتقواه بروز منقطع النظير، فهو يتحدّى الشائع، ويطرح المثال الكامل للشاب المطيع لربه المتّقي له في كل أمره، من هنا فإن صفة التقيّ غلبت على الإمام الجواد، نظرًا لاتّصافه بها بشكلٍ يميّزه، لا عن شباب عصره فحسب، بل عن شباب كلّ عصر.

• التقيّ من الاتّقاء، أي الاحتماء، وذلك لاتّقائه شرّ المأمون: فقد كان للإمام الجواد مع المأمون العباسيّ قصص كثيرة، بدأت بقتله والده، ثم استدعائه إياه من المدينة إلى بغداد... وإن المأمون قد أكرم وفادة الإمام الجواد، ربما كمحاولةٍ لدرء الشبهة عن نفسه بقتل والده الرضا، وربما لاستقطاب اهتمام الشيعة واتقاء ردة فعلهم على قتل إمامهم... وقد وصل إكرامه له إلى حدّ تزويجه من ابنته أم الفضل، مع صغر سنه، ومعارضته لبني قومه العباسيين، الذين رأوا في هذا التزويج خطرًا يهدد سلطانهم، أما المأمون فأراده أن يكون اتصالًا وتقاربًا سياسيًّا يدرأ عنه سخط الشيعة... أيًّا يكن سبب إكرام المأمون المصطنع للإمام الجواد، إلا أن الإمام رأى فيه صلاحًا للشيعة، فلم يرفض ذلك، ولكن تلك الزيجة كانت مصدر عناءٍ مستمرٍّ له، فأم الفضل كانت شديدة الغيرة عليه، حتى أنها شكت أمره يومًا إلى أبيها بسبب غيرتها من السيدة سمانة المغربية أم الإمام الهادي، وكان أبوها يومئذٍ سكران لا يعقل شيئا، فدخل عليه بالسيف فقطّعه إربًا إربا، حتى إذا أصبح الصباح دخلوا عليه فوجدوه سالمًا لا أثر للسيف فيه... وهذه من معجزاته، وفي ذلك يقول الخبر: "سمي محمد بن علي الثاني التقي لأنه اتقى الله عز وجل فوقاه شر المأمون لما دخل عليه بالليل سكران، فضربه بسيفه حتى ظن أنه قد قتله فوقاه الله شره"(٦٠).

إن كلا السببين السابقين يدلّان على شدة تقوى الإمام الجواد، حتى استحقّ أن يكون موضعًا لعناية الله ورعايته ووقايته من شرّ المأمون العباسي، وبالتالي إظهار فضله واختصاصه بتلك المعجزة الفريدة، وبذا تكون هذه الصفة من العلامات الدالة على فرادة خلقه وارتقائه.

ت - الإمام الجواد مرشداً وهاديا:

إن وظيفة الإمام عمومًا كوصيٍّ للنبي هي الإرشاد وهداية الخلق للصراط السويّ، فهي إذًا تكملةٌ لا بدّ منها لوظيفة النبيّ، وإن تعدّد الأئمة وتتاليهم بصفةٍ محدّدةٍ وفي أزمنةٍ متلاحقةٍ بنصٍّ إلهيٍّ صريح، تسمُ الإمام عمومًا بصفة المرشد الإلهي والهادي من الضلال، في زمنٍ كثرت فيه الفتن وتشابه الحقّ والباطل، حتى أصبح القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، وإن وظيفة الهداية والإرشاد تغدو أصعب وأعسر للإمام في حالةٍ كهذه، إذ أن عليه أن يبيّن الحقّ للجاهل به، وأن يثبّته للعالم المغترّ المشتبه.

على أن للإمام الجواد خصوصية ليست لغيره من الأئمة، وهي تتمثّل بصفاته الاستثنائية التي ناقشناها سابقًا، ألا وهي كونه وحيد الرضا، وشبيه الأنبياء، وبالأخصّ شبيه موسى وعيسى عليهما السلام؛ وإن خاصية كونه وحيد الرضا تفترض وراثته لعلومه بالكامل، دون أن يكون له شريك في ذلك من أخٍ أو شقيق، وهذا ما بيّنّاه أيضا، مع أن وراثة العلم الإماميّ هي مشيئةٌ إلهيّة، وسواءً كان الإمام وحيدًا أم لا فهو يرث علم أبيه، ويغدو المرشد الأمثل لكلّ من يناوئه أو يستفتيه، وأما خاصية كونه شبيه الأنبياء، فقد شهد القاصي والداني في عصره أن عصا علمه الإعجازيّ كانت "تلقف ما يأفكون"، ولسانه الأبلغ رغم صغر سنه كان جسرًا لبلوغ مراده الإرشادي، كما كان عيسى في بني إسرائيل "ينطق في المهد" فيزيح الغمة ويكشف المستور ويهدي الضال إلى سبيل الرشاد.

ومن هنا فإن أول ما قام به الجواد عليه السلام، منذ أول لحظة لاستلامه مقاليد الإمامة، أن يجابه الفئة الباغية، فكان موقفه من أولئك الذين شكّكوا بإمامته أو رفضوها، أن واجههم بعلمٍ غزيرٍ لا قبل لهم به.

لقد كان إرشاد الإمام الإعجازيّ للناس قائمًا على ثلاثة أمور:

• **إثبات إمامته بالدليل العلمي العقلي القاطع:** ذلك أن استشهاد الإمام الرضا عليه السلام وتسلّم الإمام الجواد الإمامة في عمرٍ صغير كان ابتلاءً عسيرًا على الشيعة، فقد أدت هذه المسألة إلى الاختلاف بينهم، حيث ذهب بعضهم إلى عبد الله بن موسى بن جعفر أخي الإمام الرضا عليه السلام فسألوه عدة أسئلة؛ لأن ديدن الشيعة عدم التسليم لإمامة أحد دون دليل. وعندما تحيّر في الجواب تركوه، كما مال بعض الشيعة إلى الواقفية[٦١] (أي الوقوف عند

الإمام الثامن الرضا عليه السلام وإنكارهم لحديث النبي بأن الأئمة اثنا عشر إماما)، وبرواية أخرى، جاء في الأخبار أنه "اجتمع ثمانون رجلًا من فقهاء بغداد والأمصار وعلمائهم، وخرجوا إلى المدينة، وأتوا دار الإمام الصادق عليه السلام فدخلوها، وبسط لهم بساط أحمر، وخرج إليهم عبد الله بن موسى، فجلس في صدر المجلس، وقام منادٍ فنادى: هذا ابن رسول الله فمن أراد السؤال فليسأل. فسأله بعضهم، وأجاب من عنده، فتحيّر الشيعة، وحزنوا لذلك. عندها دخل أبو جعفر عليه السلام المجلس، فأعادوا عليه المسائل، فأجاب على جميعها وبأدلة قاطعة، فخرج القوم، ودعوا له"(٦٢).

إن أحاديث الإمام الرضا التي أوردناها في المبحث السابق بحق ولده الجواد، بالإضافة إلى ما رأى الشيعة من علم الإمام وفقهه وإعجازه الفكريّ قد فاق عمّه وسواه ممن هم أكبر منه سنًّا، ومعلومٌ أن المسائل التي اختبر بها الشيعة إمامهم للتثبّت من إمامته كانت من المسائل العسيرة، وقد تمّ لهم ما أرادوا من التثبّت، وتمّ له ما أراده من الإثبات، وكانت هذه المسائل فيصلًا ومرجعًا يعودون إليه في تلك الشبهات المطروحة.

• **إثبات علمه وتفوّقه:** لقد استُهدف الإمام الجواد بالاتهامات العديدة من قبل مناوئيه وأصحاب السلطة وحسّاده، بأنه صغيرٌ في السنّ لا يفقه في الدين شيئا، وكانت أول تلك الاتهامات ما اعترض به بنو العباس على قرار المأمون بتزويجه ابنته، وبما أنهم لا يؤمنون بإمامته وتفوّقه، ويريدون أن يبعدوه عن موقع السلطة لظنّهم أنه يسعى إليها، وأن زواجه من بنت المأمون يمكن أن يهدّد سلطانهم الدنيوي، فقد أجمعوا أمرهم على مناظرته... وليضمنوا لأنفسهم التغلّب عليه أتوه بأكبر علمائهم، قاضي القضاة يحيى بن أكثم، واستدعَوا أكابر العلماء والفلاسفة ليشهدوا بظنّهم على هزيمة الجواد أمامه، فكان ذاك الموقف مشابهًا لموقف نبي الله موسى عليه السلام حينما استدعى فرعون السحرة لمعارضته بسحرهم، وخلاصة الخبر أن بني العباس "اجتمع رأيهم على مسألة يحيى بن أكثم، على أن يسأله مسألة لا يعرف الجواب فيها. فاجتمعوا في اليوم الذي اتفقوا عليه، وحضر معهم يحيى بن أكثم، فابتدأ يحيى بالسؤال، فقال للإمام عليه السلام: "ما تقول جعلني الله فداك في محرم قتل صيدا؟" فقال أبو جعفر: قتله في حل أم في حرم؟ عالمًا كان أم جاهلا؟ قتله عمدًا أم خطأ؟ حرًّا كان المحرم أم عبدا؟ صغيرًا كان أو كبيرا؟ مبتدئًا بالقتل أو معيدا؟ من ذوات الطيور كان أم من غيرها؟ من صغار الصيد أم من كبارها؟ مصرًّا على ما فعل أو نادما؟ في الليل

كان الصيد أو في النهار؟ محرمًا كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرما؟ فتحير قاضي القضاة وبان في وجهه العجز والانقطاع ولجلج، حتى عرف جماعة أهل المجلس أمره"[٦٣]، ثمّ إن الإمام بيّن كلّ تلك الأحكام، وقد اضطرّ الحاضرون بعد هذه المناظرة إلى الاعتراف بأفضلية الإمام الجواد وأعلميّته على قاضي القضاة نفسه، وعلى غيره من العلماء، مما ألقمهم حجرًا وجعلهم يرضخون للأمر الواقع، ويتقبّلون علمه وأفضليّته، وقد كان الأجدر بهم لو كانوا ذوي نزاهة وأفقٍ واسعٍ أن يعترفوا بإمامته، لا بعلمه فقط... ولكن القلوب الغلف التي طالما رفضت الحقّ حتى ولو استيقنت منه، كقلب فرعون وقلوب عتاة بني إسرائيل الذين كادوا لعيسى، وغيرهم من كفرة أقوام الأنبياء، إن تلك القلوب قد أعمتها الدنيا وبريق الدرهم والدينار وشهوة السلطة والنفوذ، فلم ترضخ لحكم الله ولم تعترف بما وجب عليها الاعتراف به، بل اكتفت بأن أقرّت بعلم ذاك الطفل الفريد الذي نصّبه الله عليهم رغم أنوفهم كما نصّب عيسى، ولكنهم لم ينالوا فضل الاعتراف بإمامته والفوز برضا الخالق وجنته.

• **إرشاد الشيعة وتوجيههم وتبليغهم:** وهو الدور الأساس الذي قام به الأئمة السابقون، فكانوا نبراسًا تستضيء به الأمم، وينبوعًا غزيرًا لا نفاد له يستقي منه كل من طلب العلم، وقد استخدم الإمام الجواد عليه السلام أسلوب المناظرات والإجابة عن الأسئلة، ليوصل ما أراده لشيعته، نظرًا لكونه محاصرًا من قبل السلطة العباسية وأزلامها، وقد روي أنه قد سئل في مجلس واحد ثلاثين ألف مسألة، فأجاب عليها كلّها وله من العمر عشر سنوات[٦٤]. إن هذا العدد (ثلاثين ألف مسألة) قد يكون مجازًا يُقصد به العدد الكبير جدا، وقد يكون حقيقةً بأن تكون بعض هذه المسائل يجيب عليها بنعم أو لا، بحيث يتسع الوقت للإجابة عن مثل هذا العدد منها.

لقد أدّى الإمام الجواد مهمّته الإرشادية على خير وجه، وكان نبراسًا لشيعته ولغيرهم من المسلمين أيضا، حيث استفادوا من علومه الغزيرة ونصائحه الجمة العميقة التي لا يرقى إليها إلا علم آل محمد، واعترف بأفضليته العدو والصديق، ولكن مصيره المحتوم كان هو نفسه مصير الأنبياء والأولياء الذين بذلوا مهجهم في سبيل الله، فجاءهم من اتبع شيطانه ونفسه الأمارة بالسوء، وتغطرس وتردّى في هواه، حتى سوّلت له نفسه مثل ما سوّلت نفوس أسلافه من الظالمين وقتلة أولاد الأنبياء.

ث - الإمام الجواد شهيدًا:

"الجود بالنفس أقصى غاية الجودِ"...

كذا قال الشاعر في الصفوة الذين يبذلون نفوسهم فداءً لمبدئهم، وكذا بذل أهل الحق أغلى ما يملكون في سبيل إحقاق الحق وإبطال الباطل وإحياء دين الله وهداية خلق الله، وكذا جاد النبي والأئمة الطاهرون بأنفسهم في مقابل تحصيل رضا الله عزّ وجلّ وأداء مهمتهم في الحياة، فكانوا هم الهداة المهديون الشهداء الصابرون، وحريٌّ بالجواد أن لا يكون متخلّفًا عن آبائه وأولاده الطاهرين، جريًا على قول الرسول الكريم: "ما منا إلا مقتولٌ أو مسموم"(٦٥)، ولئن اشتهر الإمام أبو جعفرٍ محمد بن عليٍّ الرضا عليه السلام بالجواد، حتى غلب على كلّ ألقابه الأخرى، ولعل السبب لا يكمن فقط في جوده الماديّ الذي كان مضرب المثل في الناس، ولا المعنويّ الذي حدا به إلى الصبر وتحمّل كلّ أذىً في سبيل أداء أمانته، وإعلاء كلمة الحق، بل إن جوده الاستثنائيّ كان جوده بنفسه، وافتداءه دين جدّه بحياته، وهو ابن خمسٍ وعشرين ربيعًا، لم يزل أترابه يطلّون على الحياة من بابها الواسع، فاكتفى بما قسم له الله من سنواتٍ ضاقت على قلّتها بفيض عطائه، وكانت إطلالته على الآخرة من أوسع أبوابها، باب الشهادة، فقضى سلام الله عليه شهيد علمه ومعرفته وتقاه وورعه وفقهه وأدبه وكماله...

وقد جاءت في استشهاده روايتان:

- **أنه قُتل على يد المعتصم العباسي مباشرة:**

نصّ الرواية: "روى العياش عن زرقان صاحب ابن أبي داوود قال: رجع ابن أبي داوود ذات يوم من عند المعتصم وهو مغموم، فقلت له في ذاك، قال: لما كان اليوم من هذا الأسود أبي جعفر الجواد بين يدي (أمير المؤمنين). فبعد أن جمع الفقهاء وقد أحضر محمد بن علي، فسألنا عن القطع في يد السارق، فمن أي موضع؟ فقلت: من الكرسوع قال: وما الحجة في ذلك؟ قلت: لأن اليد من الأصابع إلى الكرسوع، لقوله في التيمم ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾. واتفق معي على ذلك جماعة، وقال آخرون بل يجب القطع من المرفق، لأن الله تعالى يقول في الوضوء ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، فدل على أن اليد إلى المرافق، فالتفت

المعتصم إلى محمد بن علي، وقال: ما تقول يا أبا جعفر؟ فقال: قد تكلم فيه يا أمير المؤمنين، قال دعني مما تكلما به أي شيء عندك؟ قال: اعفني عن هذا، قال: أقسمت عليك بالله تعالى لما أخبرت بما عندك فيه، فقال: أما إذا أقسمت علي بالله، إني أقول إنهم أخطأوا فيه، فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع ويترك الكف. فقال: ما الحجة في ذلك؟ قال: قول رسول الله ﷺ السجود على سبعة أعضاء: الوجه واليدين والركبتين والرجلين. فإذا قطعت يده من الكرسوع، لم يبق له يد يسجد عليها، وقد قال تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾، يعني بهذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها، وما كان لله لم يقطع. قال: فأعجب المعتصم ذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف. قال ابن أبي داوود: قامت قيامتي وتمنيت أني لم أكن حيا، قال: ثم صرت إلى المعتصم بعد ثلاث وقلت: إن نصيحة أمير المؤمنين واجبة وأنا أكلمه بما أعلم أني أدخل النار منه، قال: وما هو؟ قلت: إذا جمع أمير المؤمنين في مجلسه فقهاء رعيته وعلماءهم لأمر وقع من أمور الدين وسألهم عن رأيهم فيه فأخبروه بما عندهم، وقد حضر مجلسه أهل بيته وقواده ووزراؤه وكتّابه، وقد تسامع الناس من وراء بابه، ثم يترك أقاويلهم كلهم لقول رجل يقول شطر هذه الأمة بإمامته ويدّعون أنه أولى منه بمقامه ثم يحكّم حكمه دون حكم الفقهاء، قال: فتغيّر لونه وتنبّه بما تنبّه له، وقال: جزاك الله عن نصيحتك خيرا، ثم أمر أحد كتابه في اليوم الرابع أن يدعو الإمام الجواد إلى منزله، فدعاه، فأبى أن يجيبه، وقال: قد علمتَ أني لا أحضر مجالسكم، فقال إنما دعوتك إلى الطعام...، ثم دسّ له السم، فاستشهد عليه السلام وذلك آخر شهر ذي القعدة سنة ٢٢٠هجرية"[٦٦].

- **أن زوجته أم الفضل بنت المأمون قتلته بإيعازٍ من عمها المعتصم العباسي:**

وذكر ذلك غير واحد من المؤرخين ومنهم المسعودي فقال: "فلما انصرف أبو جعفر إلى العراق لم يزل المعتصم وجعفر بن المأمون يدبّرون ويعملون الحيلة في قتله، فقال جعفر لأخته أم الفضل، وكانت لأمّه وأبيه، في ذلك؛ لأنّه وقف على انحرافها عنه وغيرتها عليه لتفضيله أُم أبي الحسن ابنه عليها، مع شدّة محبتها له ولأنّها لم ترزق منه بولد، فأجابت أخاها جعفرا."[٦٧] "وجعلت سمًّا في عنب رازقيّ ووضعته بين يديه عليه السلام، فلمّا أكل منه ندمت وجعلت تبكي"[٦٨]. وعندما شاهدت أثر السمِّ في بدن الإمام تركته وحيداً في الدار،

حتّى قضى نحبه..

أيًا يكن قاتل الإمام فقد كان خلفه المعتصم العباسي، والأغلب الأعمّ أنهم الثلاثة، المعتصم بن هارون وجعفر بن المأمون وأخته أم الفضل، وقد باؤوا جميعًا بخسران الدنيا والآخرة، فأما جعفر فتردّى في البئر وهو سكران فهلك، وأما أم الفضل فابتليت بداء عضالٍ لم تشف منه حتى ماتت، وكان الإمام قد دعا عليها لما سمّته[٦٩]، وأما المعتصم فقد سمّمه بعض الأتراك من عناصر جيشه، بعدما حكم البلاد لثماني سنواتٍ باع فيها دينه بدنياه، وكان له سوء العاقبة.

ونعم القول قول الإمام الجواد عليه السلام حين وافته المنية: "نحن معشر إذا لم يرض الله لأحدنا الدنيا نقلنا إليه"[٧٠]... فقد خسرت الدنيا بشهادة الإمام الجواد علمًا من أعلامها ونورًا من أنوارها الساطعة، أما هو ففاز بالجنان ونعيمها بجوار آبائه، وبطيب الذكر والأثر في الدنيا والتقديس والتبجيل من شيعته وأحبّائه، وكان قد أوصى بعده إلى ولده الإمام الهادي، فلم تخلُ الأرض من حجة، ولم يبلغ المغتالون له مطمعهم من قتله، فقد ختم الله له بالشهادة على يد شرار خلقه، وختم لهم بما ختم لقابيل وحشرهم في الدرك الأسفل من جهنم مع فرعون وهامان وجنودهما... وقتلة الأنبياء والأوصياء والصالحين، بينما استمرّت كلمة الحقّ وإشراقة الصدق من خلال ما تركه من آثاره، ومن خلال خليفته من بعده الإمام علي بن محمد النقيّ الهادي صلوات الله وسلامه عليهما.

الخاتمة:

تعدّدت الدراسات والأبحاث والكتب التي تناولت حياة الإمام الجواد بالبحث والتحليل والتمحيص، وكان بعضها يتناول حياته في سياق حياة الأئمة الآخرين، والبعض الآخر يتمحور حوله بشكلٍ خاصّ، ولكنه كالبحر لا ينفد مهما غُرف منه واستُسقي، فهو زاخرٌ يتدفّق بالحياة والعطاء، شأنه شأن آبائه الطاهرين وأولاده المنتجبين، كما أنه كإياهم لم يزل مستمرًا في عطائه بعد استشهاده، فحياته لم تكن مجموعة أعوامٍ قضاها على هذه الأرض، فقصّرها المعتدون، بل كانت دهرًا من المعرفة والعلم لم تزل تنضح على البشر طالما هم يتناقلون أخباره ويتدارسونها، فكلّ حركةٍ ونأمةٍ من تحرّكاته هي مثالٌ يحتذى، وكل لفظةٍ وكلمةٍ من أقواله درسٌ وموعظةٌ لأولي الألباب، ولعل هذا ما حاولنا إدراكه من

خلال هذه الدراسة، التي تناولت أبرز صفات الإمام الجواد عليه السلام بالتحليل والدراسة، لمعرفة ما يختبئ وراءها وما تدلّ عليه من عظيم خواصّه الاستثنائية.

لقد كان الإمام الجواد أوحد زمانه في الفكر والعلم والفقه والإيمان، كما كان وحيد أبيه الإمام الرضا، وتلك سابقةٌ له لم تكن موجودةً في ما مضى، من حياة الأئمة عليهم السلام، وقد كان لهذه الصفة تأثيرٌ كبيرٌ على حياته وحياة الأمة، فقد اختُلف فيه ثم اتُّفق عليه، ثم غدا الملجأ الوحيد للشيعة لا ثاني له، وقد ورث بتلك الصفة أباه في كل ما وهبه الله، وقد كان أيضًا شبيه الأنبياء في العديد من الخصال الخارقة للمألوف، منها إعجاز موسى ونطق عيسى في المهد وحكم يحيى صبيًا، وقد قدّر الله له تلك المعاجز لأهداف شتى، منها استقطاب الناس وإيقاظهم من غفلتهم التي هم فيها سادرون، بصدمةٍ غيرٍ متوقّعة، ومنها اختبار ثباتهم في البقاء على إيمانهم بالولاية، وغير ذلك مما تمت دراسته في هذا البحث.

ولم يطل العمر بمولانا الجواد حتى اغتالته يد الغدر العباسية، بشخص زوجته الغيور الجاهلة أم الفضل بنت المأمون، التي أسلمت قيادها لشيطانٍ يدعى المعتصم العباسي، بعدما أوعز إليها عن طريق استدراجها بأخيها جعفر، أن تسمّ زوجها الإمام، فكانت ثاني امرأةٍ من زوجات الأئمة ترتكب هذه الجريمة الشنعاء، بعد جعدة بنت الأشعث زوج الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، وبدل أن تنضمّ إلى صفوف الصالحات العابدات من زوجات الأئمة، انضمّت إلى تلك الثلة الكافرة بأنعم الله من زوجات الأنبياء والصالحين، كزوجة نوحٍ وزوجة لوط وغيرهما... وكان للإمام من أوصافه الرفيعة، كشباب الأئمة والتقيّ الجواد، ما رفعه إلى أعلى عليين، حيث استثمر كل دقيقةٍ من حياته الشريفة في جهاد الكلمة والصبر على كيد الكائدين وظلم الظالمين، ومجابهة القاصي والداني ونشر فكر آل محمدٍ وعلومهم بين الناس، رغم الحصار والتضييق عليه من قبل السلطة العباسية الغاشمة، وكان يتوسّل المناظرات والمحاورات سبيلًا ليرشد أنصاره ويعظهم، وإذا بكلّ موقفٍ وقفه في حياته يغدو موعظةً بعد مماته... حتى ضاقت قلوب الحاسدين وأهل الدنيا بذلك الصرح العظيم، واستكثروا عليه من العمر ما حباه الله به، فوقعوا عليه كما تقع البزاة على الصيد الثمين، ونهشوا جسده بالسم الزعاف وقلبه بالخيانة، فقضى بحسرة المصاب كآبائه، ولكنه ترك خلفه كنزًا من العلوم الربّانية لم يزل يتناقله الخلف عن السلف، وترك وريثه وولده الإمام عليًّا الهادي النقيّ عليه السلام، ليكون غوث الأمة وغياثها من بعده.

لقد ضرب الإمام الجواد عليه السلام بأوصافه الفريدة مثلًا للناس في إمامة الصبيّ، وفي التواصل مع شيعته من خلال الوسائط، أثناء حصاره من قبل السلطة والإقامة الجبرية التي فُرضت عليه، فكان مثالًا ممهّدًا للإمام المهدي الذي ولد بعده بستين عاما، حيث ثبّت تلك الحقائق في أذهان الشيعة حتى تبنّوها في ما بعد في شخص إمامهم الخاتم.

وكانت شهادته عليه السلام وهو في ربيع شبابه، عبرةً لكلّ معتبِر، بأنّ أهل البيت هم كبش فداء هذه الأمة، لا يرتجى خيرها من دونهم، ولا يبلغ الطامحون مداها إلا عبرهم، ولا يرقى البشر إلى خير العمل إلا بمعرفة سيرتهم وآدابهم والتفقّه في علومهم، ولمثل ذلك فليعمل العاملون.

ويبقى هذا البحث نافذةً نطلّ من خلالها على بعض تلك العظمة المتجسّدة في تاسع نورٍ من أنوار العترة الطاهرة، وبابًا نلج منه إلى جنّته الزاهرة، وربما ينطلق من ثنايا هذه البحث سؤال، أن كيف كان تمهيد الإمام الجواد لقائم آل محمد؟ وكيف نقرأ في صفاته وأحداث حياته وأساليبه الإرشادية في تواصله مع شيعته، مقدّمات صفات وأحداث حياة وأساليب إرشاد الإمام الثاني عشر، في غيبتيه الصغرى والكبرى؟

نترك جواب هذا السؤال لبحثٍ آخر، وربما لباحثٍ آخر يخوض في مضامينه ومراميه، ويكتشف كيف كان الإمام الجواد صلة وصلٍ بين الأئمة السابقين له واللاحقين به، وبالأخصّ الإمام الحجة بن الحسن عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

والسلام على شباب الأئمة، التقي الجواد، الشهيد ابن الشهداء أبو الشهداء، وجدّ القائم المنتظر عجل الله فرجه، يوم ولد وحيداً لأبيه مباركًا "لم يولد للشيعة مولودٌ أعظم بركةً منه"، ويوم نطق في المهد ليحيي القلوب الميتة ويشفي النفوس الوغرة ويدفع السوء والبلاء والفتنة عن أمة جده، ويوم وقف مناظرًا علماء عصره رافعًا عَلَم علم مدينة جده، مثبتًا لكل شكّاكٍ أشرٍ حقّانيّة إمامته وإمامة آبائه، ويوم غالته يد الفتنة والبغي فارتقى شهيداً مظلومًا في ريعان شبابه، ويوم يبعث حيًّا بين يدي بارئه ليقتصّ من أعدائه ويبارك في عمل أوليائه.

هوامش البحث

(١) كفاية الطالب، الحافظ الكنجي الشافعي، ص٢٦٠، مناقب علي بن أبي طالب، الخوارزمي الشافعي، ص٨٧، تذكرة الخواص، سبط بن الجوزي، ص٥٢، شرح نهج البلاغة، ابن أبي حديد، ج٢ ص٤٥٠، الرياض النضرة، محيي الدين الطبري، ج٢ ص١٦٤، ميزان الاعتدال، الذهبي، ج٢ ص٢٣٥، ينابيع المودة، القندوزي الشافعي، ص٨٣ (الطبعة القديمة طبع اسلامبول) وغيرها من مصادر أهل العامة فضلًا عن كتب الشيعة

(٢) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٣١، ح١٠٨ والأمالي، الشيخ الصدوق، ص٣٠٧و٣٥١، وعيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، ج ٢، ص٥٨، ح٢١٩، والفضائل، ابن شاذان، ص٨٢ وص١٠٨، وشرح الأخبار، أبو حنيفة النعمان المغربي، ج ١ص٢٢٠، ح٢٠٠ وغيرها...

(٣) المحتضر، الشيخ عز الدين الحلي، ص ١٥٩ و١٦٠، وبحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٢٥ ص٣٦٣

(٤) سورة آل عمران، الآية ٣٤

(٥) سورة الأعراف، الآية ١٨٠

(٦) الكافي، الكليني، ج١، ص١٤٤

(٧) سورة التين، الآية ٤

(٨) بحار الأنوار، المجلسي، ج٥٠، ص٢٧، ومسند الإمام الرضا، الشيخ عزيز الله العطاردي، ج١، ص٢٣ من حياة الإمام الرضا، والفصول المهمة في معرفة الأئمة، ابن الصباغ، ج٢، ص١٠٣٣،

(٩) منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، الشيخ عباس القمي، ج٢، ص١٥٩

(١٠) منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، الشيخ عباس القمي، ج٢، ص٣٣٣

(١١) الكافي، الكليني، ج١، ص٤٧٧

(١٢) الكافي، الكليني، ج١، ص٤٧٧

(١٣) الأمالي، الصّدوق، ص٢٤

(١٤) إثبات الوصية، المسعودي، ص٢٠٢

(١٥) دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري الشيعي، ص٢١٦

(١٦) منتهى الآمال، الشيخ القمي، ج٢، ص٥١٩

(١٧) كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ج١، ص٤٢٢

(١٨) موسوعة الإمام الجواد، السيد الحسيني القزويني، ج١، ص٣٢، والكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٣٢٢، ح١٤

(١٩) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٤٦، ص١٠٥

(٢٠) موسوعة الإمام الجواد، السيد الحسيني القزويني، ج١، ص٣٢، والكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٣٢٢، ح١٤

(٢١) عيون المعجزات، حسين عبد الوهاب، ص١٢١ س١١

(٢٢)الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد، ج٢، ص٢١٧، ومناقب آل أبي طالب، ابن شهراشوب المازندراني،ج٤، ص٣٩٧ و إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ الطبرسي، ج٢ ص٨٦، و دلائل الإمامة، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الشيعي ص٣٥٩، و تهذيب الأنساب للعبيدي ص١٤٨

(٢٣) الوافي بالوفيات، الصفدي ج٢ ص٢٤٨، و سير أعلام النبلاء، الذهبي ج٩ ص٣٩٣ الترجمة ١٢٥، و الصواعق المحرقة، الهيتمي ص٣١١

(٢٤) كشف الغمة، أبي الحسن الأربلي، ج٣ ص٥٩

(٢٥) بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٥، وعيون المعجزات، ص١٠٧

(٢٦) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٣١٤

(٢٧) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج٥، ص٢٠٢

(٢٨) صحيح البخاري، ج٤ ص٣٠٨، ج٥ ص١٣٩، وصحيح مسلم ج٧، ص١٣٠، والسنن الكبرى للبيهقي ج٩، ص٤٠، ومسند أبي داوود ص٣٨، والمصنّف للصنعاني ج٥، ص٤٥٦، وج١١، ص٣٣٦، وغيرها.

(٢٩) سورة البقرة، الآية ٣٥

(٣٠) سورة الشعراء، الآية ١٤

(٣١) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، أحمد الرحماني الهمداني، ص٣٦٩، واللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء، التبريزي الأنصاري، ص٩٩

(٣٢) اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء، التبريزي الأنصاري، ص٩٣

(٣٣) الأنوار البهية، الشيخ عباس القمي، ص٢٥١، وبحار الأنوار، ج٥٠، ص١٥، وج١٢ ص١٠٣

(٣٤) الصراط السوي في مناقب آل النبي، الشيخاني الشافعي، ص٤٠٤

(٣٥) الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة لابن الصبّاغ المالكي ٢٧١، ونور الأبصار في مناقب آل النبي المختار، الشبلنجي الشافعي ٣٢٨ ـ ٣٢٩، وإعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ الطبرسي، ج٢، ص٩٦ و٩٧، والكافي، الكليني، ج١، ص٤١١،ح ١، وبصائر الدرجات، الصفّار القمّي، ص٤٢٢، ح ١، والإرشاد، الشيخ المفيد، ج٢، ص٢٨٩، والاختصاص، الشيخ المفيد، ص ٣٢٠. و دلائل الإمامة، الطبري الشيعي، ص ٢١٤، وروضة الواعظين، الفتّال النيسابوري، ص ٢٤٢، والخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي ج١، ص٣٨٠، ح ١٠، ومناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب ج٤، ص٣٩٣، والبحار ج٥٠، ص٤٠، ح ٣، والثاقب في المناقب، ابن حمزة الطوسي، ص٥١٠، ح ٢، والصراط المستقيم إلى مستحقّي التقديم، البياضي النباطي، ج٢، ص٢٠٠،ح ٦ ـ وكشف الغمّة، الإربلي، ج٢، ص٣٥٩

(٣٦) سورة آل عمران، الآية ٣٤

(٣٧) نوادر المعجزات، محمد بن جرير الطبري الشيعي، ص١٧٩، ودلائل الإمامة ص٣٩٧، ومدينة المعاجز، السيد هاشم البحراني، ج٧، ص٣١٧

(٣٨) تقريب المعارف، الحلبي، ص١٧٩، الأنوار البهية، الشيخ عباس القمي، ص٢٦٣
(٣٩) دلائل الإمامة، ص٣٩٨، ومدينة المعاجز ج٧ ص٣٢٠، والأنوار البهية ص٢٥٩
(٤٠) الخرائج والجرائح، ج١، ص٣٨٣، والبحار، ج٥٠، ص٤٨، ومدينة المعاجز، ج٧، ص٣٧٦، والصراط المستقيم، علي بن يونس العاملي، ج٢، ص٢٠٠
(٤١) دلائل الإمامة، ص٣٩٨، الأنوار ص٢٩٥، نوادر المعجزات، ص١٨٠، مدينة المعاجز، ج٧، ص٣١٩
(٤٢) سورة مريم، الآية ٣١
(٤٣) الكافي، ج١، ص٣٢٢
(٤٤) سورة المائدة، الآية ١١٠
(٤٥) بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٠
(٤٦) دلائل الإمامة، ص ٣٨٤، ح ٣٤٢. وموسوعة الإمام الجواد عليه السلام، السيد الحسيني القزويني، ج ٢، ص٣٩٩.
(٤٧) دلائل الإمامة، ص٣٨٤، ح٣٤٢
(٤٨) إرشاد المفيد ص ٢٩٨ وإعلام الورى ص ٣٣١ نقلا عن الكافي (ابن أقل من ثلاث سنين).
(٤٩) سورة مريم، الآية ١٢
(٥٠) سورة يوسف، الآية ٢٢
(٥١) سورة الأحقاف، الآية ١٥
(٥٢) الكافي: ج ١، ص ٣٨٤، ح ٧، وص ٤٩٤، ح ٤، وفيه: (يعطاها) بدل (يؤتاها) عنه مدينة المعاجز: ج ٧، ص ٢٧٩، ح ٢٣٢٣، وص ٣٠١، ح ٢٣٣١ وص ٣٠٢، ح ٢٣٣٩، وحلية الأبرار: ج ٤، ص ٥٤٣، ح ١، وإثبات الهداة: ج ٣، ص ٣٢٩، ح ٤، والوافي:ج ٢، ص ٣٧٨ ح٨٦١، و ج ٣، ص ٨٢٧، ح ١٤٣٦، والبرهان: ج ٣، ص ٧، ح ٧، وتعليقة الخواجوئي لمفتاح الفلاح: ص ٤٨٧، س ١١، ونور الثقلين: ج ٣، ص ٣٢٥، ح ٣٢، و ج ٥، ص ١٣ ح ١٦، وبصائر الدرجات: ص ٢٥٨، ح ١٠، بسند آخر إلى علي بن أسباط، عنه البحار: ج ٥٠، ص ٣٧، ح ١، و ج ٢٥، ص ١٠٠، ح، وإرشاد المفيد: ص ٣٢٥، س ٢٢، عن معلى بن محمد، باختلاف، وعنه كشف الغمة: ج ٢، ص ٣٦٠، س ٢٣، ومجمع البيان: ج ٣، ص ٥٠٦، س ٩
(٥٣) دلائل الإمامة، ص٣٨٤، ح٣٤٢
(٥٤) بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢١
(٥٥) بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٨
(٥٦) بحار الأنوار، ج٥٠، ص١٠٨
(٥٧) المحتضر، الحلي، ١٥٩ و١٦٠، وبحار الأنوار، ج٢٥ ص٣٦٣
(٥٨) معجم رجال الحديث، السيد الخوئي، ١١/١٥٤

(٥٩) الاحتجاج، الطبرسي، ج٢، ص١٧٠
(٦٠) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص٦٥
(٦١) مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٣٨٢
(٦٢) دلائل الإمامة، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦؛ وبحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٩٨ ـ ١٠٠.
(٦٣) بحار الأنوار، ج٥، ص ٧٦-٧٧، تذكرة الخواص، ص ٣٦٨-٣٧٢. تحف العقول، ص ٣٣٥، الأئمة الإثنا عشر، عادل أدي، ص ٢٢٢،.
(٦٤) نور الأبصار في موالاة الأئمة الأطهار، الأعلمي، ص٣٠٧
(٦٥) كفاية الأثر ص٢٢٦ و٢٢٧ والصراط المستقيم ج٢ ص١٢٨ والأنوار البهية ص٣٢٢ ط سنة ١٤١٧ هـ والبحار ج٢٧ ص٣٦٤ وج٤٤ ص١٣٩
(٦٦) نور الأبصار، ص٣١٢
(٦٧) إثبات الوصية، المسعودي، ص ٢٢٧، س٤.
(٦٨) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٧.
(٦٩) إثبات الوصية، ص٢١٩
(٧٠) الخرائج والجرائح، ج٢ ص٧٧٣ ح٩٤.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتدىء به القرآن الكريم.

١. الأئمة الاثنا عشر، عادل أديب.
٢. إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، الحرّ العاملي
٣. إثبات الوصية، المسعودي
٤. الاحتجاج، الطبرسي
٥. الاختصاص، الشيخ المفيد
٦. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد
٧. إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ الطبرسي
٨. الأمالي، الشيخ الصدوق
٩. الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، أحمد الرحماني الهمداني

١٠. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

١١. الأنوار البهية، الشيخ عباس القمي

١٢. بحار الأنوار، العلامة المجلسي

١٣. البرهان، السيد هاشم البحراني

١٤. بصائر الدرجات، الشيخ محمد بن الحسن الصفّار القمّي

١٥. تذكرة الخواص، سبط بن الجوزي

١٦. تحف العقول، ابن شعبة الحراني

١٧. تعليقة الخواجوئي لمفتاح الفلاح، محمد إسماعيل الخواجوئي

١٨. تقريب المعارف، الحلبي

١٩. تهذيب الأنساب، العبيدي

٢٠. الثاقب في المناقب، ابن حمزة الطوسي

٢١. حلية الأبرار، السيد هاشم البحراني

٢٢. الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي

٢٣. الخصال، الشيخ الصدوق

٢٤. دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري الشيعي

٢٥. روضة الواعظين، الفتّال النيسابوري

٢٦. الرياض النضرة، محيي الدين الطبري

٢٧. السنن الكبرى للبيهقي

٢٨. سير أعلام النبلاء، الذهبي

٢٩. شرح الأخبار، أبو حنيفة النعمان المغربي

٣٠. شرح نهج البلاغة، ابن أبي حديد

٣١. الصراط السوي في مناقب آل النبي، الشيخاني الشافعي

٣٢. الصراط المستقيم، علي بن يونس العاملي

٣٣. الصراط المستقيم إلى مستحقّي التقديم، البياضي النباطي

٣٤.صحيح البخاري

٣٥. صحيح مسلم

٣٦.الصواعق المحرقة، الهيتمي

٣٧.عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق

٣٨.عيون المعجزات، حسين بن عبد الوهاب

٣٩. الفضائل، ابن شاذان

٤٠. الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة، ابن الصبّاغ المالكي

٤١. الكافي، الشيخ الكليني

٤٢. كشف الغمة، أبي الحسن الأربلي كفاية الأثر، الخزاز القمي

٤٣.كفاية الطالب، الحافظ الكنجي الشافعي

٤٤. كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق

٤٥. اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء، التبريزي الأنصاري

٤٦. مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي

٤٧.المحتضر، الشيخ عزّ الدين الحلي

٤٨. مدينة المعاجز، السيد هاشم البحراني

٤٩. مسند الإمام الرضا، الشيخ عزيز الله العطاردي

٥٠. مسند أبي داوود

٥١. المصنّف، الصنعاني

٥٢. معجم رجال الحديث، السيد الخوئي

٥٣. معاني الأخبار، الشيخ الصدوق

٥٤. مناقب آل أبي طالب لابن شهراشوب المازندراني

٥٥. مناقب علي بن أبي طالب، الخوارزمي الشافعي

٥٦. منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، الشيخ عباس القمي

٥٧. موسوعة الإمام الجواد عليه السلام - السيد الحسيني القزويني

٥٨. ميزان الاعتدال، الذهبي

٥٩. نوادر المعجزات، محمد بن جرير الطبري الشيعي

٦٠. نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار، الشبلنجي الشافعي

٦١. نور الأبصار في موالاة الأئمة الأطهار، الأعلمي

٦٢. نور الثقلين، عبد علي العروسي الحويزي

٦٣. الوافي، الفيض الكاشاني

٦٤. الوافي بالوفيات، الصفدي

٦٥. ينابيع المودة، القندوزي الشافعي